الباب الثالث

مدرسة البصرة

الفصل الأول

مدرسة البصرة الأولى

فى القرن الأول وأوائل القرن الثانى

١ – أثر أبى موسى الأشعرى الزهدى :

كانت البصرة ثغر العرب – حين مصرت فى السنة السابع عشرة من الهجرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب . بالقرب من الإبلة ، ميناء العجم . وسكانها عرب الشمال من قبائل مضر ، والثغور تعرف الواردين والصادرين . فكانت وافد الأجناس من الهند والسند ومن زنوج أفريقيا وكانت البصرة تطل على تخوم فارس القديمة . واعتبرت عاصمة خراسان ، فأتى إليها الفرس بالذات وممن وفد على البصرة من الفرس قبيلتان أو فخذان فارسيان هما الأساورة والسياجة ، فكانت البصرة مهجنة ، مزيجا غريبا . وأرسل إليها عمر بن الخطاب القارئ القديم لمحمد ﷺ ، أبا موسى الأشعرى ، ليقرئ سكانها القرآن ، وليصلح طرقاتها . وليقيم أمر الإسلام فيها .

وضخمت الحياة فيها وكبرت تجارتها ، وازدادت غنى وثروة ، فأترف أهلها وعظم فيها الفسق ، بحيث شكا واليها على عهد معاوية زياد بن أبيه من بيوت الفسق واللعب فيها . والترف واللهو واللعب يستدعى العبادة والجد والزهد والتفكر .

وكانت البصرة عثمانية «فى مجموعها» ، هذا بالرغم من سكن قبائل عبد قيس الشيعية فيها . ولم تكن عثمانيتها ترفا أو تكاسلا أو جبنًا فقط ، كما تصور بعض الباحثين : بل كان السبب فى هذه العثمانية هو شيخها وشيخ قرائها – أبا موسى الأشعرى ، الذى آثر لنفسه ولها العافية والسلامة . كانت طبيعة المصر ، غناه وترفه وهجته ، مؤديا إلى موقف من الحياة ثابت ، يختلف عن طبيعة البلد الآخر – الكوفة – المتقلبة المزاج ، غير الثابتة ، المضطربة القلقة .

وشاركت البصرة فى حرب الجمل – نتيجة لعثمانيتها ، وقد كلفها هذا الكثير . ثم عادت لنظرتها فى الحياة ، النظرة المتسامحة الطيبة ، فبايعت عليا ، ثم بايعت معاوية بعده ولم تتشيع لا لهذا ولا لذاك ، بل سرعان ما أخرج منطق حياتها المرجئة : الذين يتولون الاثنين معاً ، مرجئين أمرهما إلى الله ، كما

أخرج سياق فكرها المعتزلة ، أصحاب المنزلة بين المنزلتين. متوسطين المسائل ، بعيدين عن الغلو ، وحين اعتنق مفكروها من المعتزلة مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان هذا المبدأ عندهم بالقلب أو باللسان ، ولم يكن باليد أبدا . ولذلك سمى معتزلتها بمخانيث الخوارج .

ولدت البصرة عجوزا شمطاء ، خالية من النزوات ، ولكنها غنية متزينة بكل الحلى ، مصبوغة بكل الأصباغ والألوان ، بينما ولدت الكوفة وبقيت طول حياتها – كما سنرى – بعد : شابة لعوبا تتقاذفها النزوات والأهواء والشهوات ومن العجب أن تعيش هذه العجوز الشمطاء أبدا خلال التاريخ ، وأن تبقى حتى عصورنا هذه ، كأنها ساحرة أبدية ، بينما أنهكت النزوات الكوفة الشابة فماتت ، ولم يبق لها أثر فى أيامنا هذه ، سوى الأطلال والدمن والذكريات .

وإلى البصرة ، أتى كما قلت ، القـــارئ القديم لمحمد ﷺ ، ومن كبار رجال أصـــل الصفة العابدين المتبتلين . لينشئ حلقة قرآنية فيها . كان أبو موسى الأشعرى من العباد – كما قلت ، ومن كبار القراء . وقد سبق أن تكلمت عن أبى موسى الأشعرى ، ولكننى سأعود مرة ثانية إلى توضيح كثير من جوانب حياته ، لأنه مما لا شك فيه أن هذا الصحابى قد صبغ البصرة وحياتها الروحية بصبغته .

كان أبو موسى الأشعرى واحدا من أبرز قراء الرسول ﷺ . وقد أجمعت المصادر على أن الرسول كان يستمع إلى قراءته . هو وزوجه عائشة ، فلقد مرا ببيته ذات ليلة ، وأبو موسى يقرأ ، فقاما فاستمعا لقراءته ، ثم إنهما مضيا ، فلما أصبح لقى النبى ﷺ أبا موسى وقال له : يا أبا موسى ، مررت بك البارحة ، ومعى عائشة ، وأنت تقرأ فى بيتك . فاستمعنا لقرآنك . لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود . ورد الصحابى الواثق بقراءته . . يا نبى الله . أما أنى لو علمت مكانك . لحبرت لك القرآن تحبيرا . » وقد فاضت الآثار فى جمال صوته وقراءته . بحيث كان عمر بن الخطاب يقول له حين يجتمعان « ذكرنا ربنا عز وجل » فيقرأ أبو موسى الأشعرى ويستمع المسلمون ويطربون . بل اعتبر المسلمون قرآن أبى موسى الأشعرى موسيقاهم الخالدة ، بحيث يقول أبو عثمان النهدى « صلى بنا أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه صلاة الصبح . فما سمعت صوت صنج ، ولا بربط كان أحسن صوتا منه [1] » والبربط ، ملهاة أو آلة فارسية تشبه العود . كان يحملها المغنى يضعها على صدره ويضرب . ونحن نتبين من هذا النص أن الصنج ، وهى الدفوف . والأعواد كانت تستخدم فى هذا الوقت وتنتشر الموسيقى فى أرجاء البصرة . ولكن موسيقى أبى موسى الأشعرى القرآنية كانت ترتفع حينئذ فوق كل الموسيقى الدنيوية وكان يسير بالبصرة ، فسمع الناس يتحدثون . وأنصت لفصاحتهم وشغلهم بالدنيا فى أحاديثهم ، وكان

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٥٨ ، وانظر : صفوة الصفوة ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها

معه أنيس بن مالك فقال : مالى يا أنيس : هلم فلنذكر ربنا فإن هؤلاء يكاد أحدهم أن يفرى الأديم بلسانه . ثم قال : يا أنس ما أبطأ الناس عن الآخرة وما ثبرهم عنها . فقال أنس : الشيطان والشهوات . قال لا والله : ولكن عجلت لهم الدنيا وأخرت الآخرة ، ولو عاينوا ، ما عدلوا وما ميلوا »

وأرسل الرسول ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن ، ليعلما الناس القرآن ، ثم ذهب فى خلافة عمر إلى حمص . وصلى فى كنيسة يوحنا ، ثم خرج فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقد رأى إمتلاك المسلمين للشام وكنائسها .

وأدرك عمر ببصيرته النفاذة أن قارئ القرآن الكبير ينبغى ، أن يذهب واليا على البصرة ، فذهب إليها . فبين لهم فى أول خطبة له مهمته الأولى وهى إقراءهم القرآن ، ثم تعليمهم سنة الرسول ، ويأتى بعدها تنظيف الطرق وحكم المدينة . ثم أخذ يقعد فى المسجد ، لتعليم المسلمين القرآن . وكان أبو رجاء العطاردى القارئ المشهور يتذكره . ويقول « فكأنى أنظر إليه بين بردين أبيضين يقرئنى القرآن ، ومنه أخذت هذه السورة – إقرأ باسم ربك الذى خلق – فكانت أول سورة أنزلت على محمد ﷺ » ثم حين تخلى عن الولاية ، لم يكن يدخل عليه إلا القراء ، وكان عددهم قريبا من ثلثمائة وكان يخشى عليهم قسوة القلب ، وتقلباته . وهذا ما حدث فعلاً فيما بعد : وكان يعظهم أشد الوعظ .

وخشى عليهم فتنة الدنيا ، فكان يلبس العباء – كما قلت أحياناً ، « ويتوخى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذى يكاد ينسلخ فيه الإنسان ، فيصومه » ويذكرهم بأيامه مع رسول الله ، وهم مجهدون من العطش والجوع ، ويستعرض أحداث غزوة ذى الرقاع ، حين نقبت أقدامهم ، وتساقطت أظافرهم . فكانوا يلفون على أرجلهم الخرق والرقاع .

ورأى الدنيا أحزاناً وفتنة . فكان يتأفف ويقول « ما ينتظر من الدنيا ، إلا كلا محزنا وفتنة تنتظر » وحذرهم سطوة المال « إنما أهلك من كان قبلكم هذا الدينار وهذا الدرهم ، وهما مهلكاكم » وذكرهم بتقلبات القلب ، وخشى عليهم نزواته . ثم طلب منهم البكاء ، والتباكى . وحدثهم عن النار فى يوم البعث ، وأخذ يشتد فى ذكرها . وقد أصبح البكاء بعده ، والخوف من النار وأهوالها ، سمة العبادة أو الزهد البصرى . ونسب إليه أبو نعيم وابن الجوزى مصطلح « كشف الغطاء (١) » وحقا إن هذا المصطلح قرآنى ، ولكنه استخدم – فيما بعد – استخداماً آخر .

وفى خلال إمارته على البصرة ، احترقت أخصاصها وبقى فى وسطها خص ، لم يحترق ، فأخبر أبو موسى بالأمر ، فبعث إلى صاحب الخص ، فأتى به وسأله أبو موسى : يا شيخ – ما بال خصك لم

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٦٣ ، وابن الجوزى : صفة الصفوة ج ١ ص ٢٢٥ .

يحترق فقال : إنى أقسمت على ربى ألا يحرقه . فقال أبوموسى : أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون فى أمتى رجال طلس رؤوسهم ، دنس ثيابهم ، لوأقسموا على الله لأبرهم[١] » .

وأخيراً . . . لقد آمن أيضاً قراء الكوفة أو العدد الكبير منهم بأبى موسى الأشعرى . وحين رفعت المصاحف فى صفين رأى هؤلاء القراء ، أنه لابد من التحكيم ، وأصروا على أن يكون ممثل على ، شيخهم الكبير البصرى . وقد انقلب هؤلاء القراء – خوارج – فيما بعد . ومات أبو موسى الأشعرى سنة اثنتين وخمسين من الهجرة ، وقيل إنه دفن بالثوية على بعد ميلين من الكوفة .

ونعود إلى البصرة فنقول : لقد زرع أبو موسى الأشعرى الفرس فيها ونما ، وترك ملامح حياته على كثير من الحياة الروحية فيها .

٢ – عامر بن عبد قيس – الثورة الروحية الأولى فى البصرة

ولكن البصرة التى تتقبل كل أنماط الحياة ، ما تلبث أن تقدم نوعاً من الزهد أو العبادة الإيجابية ، التى تحاول الخروج على الخليفة ، وأن تربط الزهد بالسياسة العامة للدولة . ما تلبث البصرة أن تخرج من أراضيها عابداً من أكبر عباد المسلمين . هو عامر بن عبد قيس البصرى . أما اسمه الكامل – فهو عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، نشأ فى الجاهلية فى هذه القبيلة الغامضة اليمنية – قبيلة عبد قيس ، والتى ستتصل بسلمان الفارسى ، وتتشيع تشيعاً غالياً فيما بعد ، ويستشرى الغنوص فيها . ولم يدرك عامر ابن عبد قيس رسول الله ، ثم حضر إلى البصرة مع قبيلته وسكن بها بحيث أطلق عليه أبو عمروالبصرى . وفى البصرة قرأ القرآن على أبى موسى الأشعرى . ثم انتهى الزهد إليه بحيث يقول صاحب أسد الغابة «كان أعبد أهل زمانه وأشدهم اجتهاداً[٢] . ويضعه ابن الجوزى وأبو نعيم على رأس مجموعة التابعين من العباد[٣] . ويطلق عليه كعب الأحبار ؛ حين يراه «هذا راهب هذه الأمة»[٤] وذكر صاحب الحلية عامربن عبد قيس « أول من عرف بالنسك واشتهر من عباد التابعين بالبصرة» وأنه قدمه على عباد الكوفيين لتقدم البصرة على الكوفة ، إذ بنيت قبل الكوفة بأربع سنين ، وكذلك لأن أهل البصرة أشهر بالنسك والعبادة وأقدم من الكوفيين ، فعامر بن عبد قيس ، هو أول بل منشئ تلك الطائفة من

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ١ ص ٨٨ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨ .

(٣) أبو نعيم الحلية ج ٢ ص ٨٧ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٢٧ .

النساك التى ظهرت بعد وفاة عمر بن الخطاب ، وقد سبق أن تكلمنا عنها من قبل ، وقلنا إنهم طائفة كانوا يمشون فى سمت ووقار ، ورأينا اعتراض الشفاء بنت عبد الله على هذه الطائفة ، ومقارنتها لهم بعمر بن الخطاب الناسك القديم . ويرى صاحب الحلية أن عامر بن عبد قيس قد تخرج على أبى موسى الأشعرى فى النسك والتعبد ، ومنه تلقن القرآن وأخذ الطريقة . ولكن يبدو أن رواية أبى نعيم ليست دقيقة ، فما لاشك فيه أن عامر بن عبد قيس أخذ القرآن عن أبى موسى ، ولكن ما لبث أن اختلف معه فى الطريقة اختلافاً تاماً إذ أن أبا نعيم ما يلبث أن يقول لنا إن أبا موسى الأشعرى أرسل إلى عامر بن عبد قيس – يقول له « أما بعد ، فإنى عهدتك على أمر ، وبلغنى أنك تغيرت ، فاتق الله وعد [١] » .

من الواضح إذن أن الطريق قد اختلفت بالإثنين ، واختط عامر بن عبد قيس مسلكاً فى الحياة يختلف أشد الاختلاف عن مسلك صديقه وأستاذه أبى موسى الأشعرى – كما سنرى فيما بعد . ولم يكتف عامر بن عبد قيس بالأخذ عن أبى موسى الأشعرى ، بل أخذ عن غيره من الصحابة ، ويذكر ابن الجوزى أن « عامرا أدرك الصدر الأول ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لكنه اشتغل بالعبادة عن الرواية [٢] » .

ويبدو أنه كره التحديث حين رأى « أصحاب الأهواء » فى مسجد البصرة يكثرون اللغط والتخليط ، وكان له مجلس فى المسجد فتركه ، فذهب إليه أصحابه يسألونه ، فأجابهم بحديث مرفوع إلى النبى ﷺ واعترف فى ديباجة الحديث بأنه صاحب أصحاب رسول الله ، وأنهم حدثوه بحديث رسول الله « رأيت نفراً من أصحاب النبى ﷺ وصحبتهم ، فحدثونا أن أصفى الناس إيماناً يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه فى الدنيا ، وأن أشد الناس فرحاً فى الدنيا ، أكثرهم حزناً يوم القيامة ، وأن أكثر الناس ضحكاً فى الدنيا ، أكثرهم بكاء يوم القيامة . وحدثونا « أن الله تعالى فرض فرائض وسن سناً ، وحد حدوداً ، فمن عمل بفرائض الله وسننه ، وركب حدوده ، ثم تاب ، استقبل الزلازل والأهوال ، ثم يدخل الجنة ، ومن عمل بفرائض الله وسننه ، وركب حدوده ثم مات مصراً على ذلك ، لقى الله مسلماً إن شاء غفر له ، وإن شاء ، عذبه [٣] » . فعامر إذن قابل عدداً من الصحابة ، وأخذ عنهم الحديث ، ولكنه لم يكثر ، فقد اتجه نحو القرآن ، ونحو العبادة ، بل استهلك فيهما استهلاكاً كاملاً .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٥ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٩٣ .

وسنحاول الآن تخطيط حياته – طبقاً لما لدينا من مصادر. ينتمي عامر بن عبد قيس – كما رأينا – إلى هذه القبيلة اليمنية . أتى إلى البصرة في مطلع شبابه ، ثم لزم أبا موسى الأشعري وانضم إلى حلقة القراء . وهو نفسه – يذكر هذا – بعد أن أخرج من البصرة إلى الشام ، حين سعى في أمره إلى معاوية ، وتقول عليه البصريون الأقاويل . ويبدو أنه كان يرنو إلى البصرة دائماً ، فلما طلب منه بعض أصحابه أن ينحدر إليها ثانية قال : «والله إنه للبلد الذي هاجرت إليه ، وتعلمت به القرآن ، ولكنه رحلة هوى[١] » .

ومن ثم ، أصبح القارئ اليمني معلم القرآن وجليسه ، يعلمه في مسجد البصرة . فيقضي النهار كله في المسجد – وهو صائم – يقرئ الناس القرآن . وكان يذكر للرجال والنساء «تعزوا عن الدنيا بالقرآن ، فإنه من لم يتعز بالقرآن ، عن الدنيا تقطعت نفسه حسرات[٢] » .

ثم بدأت عبادته من صيام دائم وقيام بالليل ثم لجأ للسياحة ويذكر ابن الجوزي وصاحب الحلية أنه قابل العابد حممة ، وأخذ عامر وحممة يتعبدان أربعين ليلة . وقد ذكر ابن الجوزي أن حممة كان من صحابة رسول المتعبدين ، وأنه كان حبشيا ، وأنه خرج غازياً في خلافة عمر ، ثم عاش يتعبد حتى مات بجوار أصبهان . وها هو يظهر في حياة عامر بن عبد قيس ، كما سيظهر في حياة العابد هرم بن حيان[٣] .

ثم يترامى إلى أسماع عامر بن عبد قيس أن الخليفة عثمان قد غير وبدل ، وأنه لا يسير على سنة الشيخين ، فطلبه إلى المدينة ، وتناقش الرجلان في لحدة ، كما حدث تماماً بين عثمان وبين أبي ذر ثم عاد عامر بن عبد قيس إلى البصرة «وأخذ يطعن على الأئمة» أي على الحكام[٤] ، ويبدو أن عامر بن عبد قيس إختلف مع والي البصرة بعد عودته من المدينة ، وبخاصة بعد عزل عثمان لأستاذه أبي موسى الأشعري ، وقد ذكرت المصادر قيام عامر بن عبد قيس بإجارة ذمي حاول والي الكوفة ظلمه ، فسعى به مرة أخرى إلى عثمان بأنه «لا يأكل اللحم ، ولا ينكح النساء ، وأنه يطعن على الأئمة ولا يشهد الجمعة[٥] » أما الامتناع عن أكل اللحم وعن الزواج ، فكان يعني أنه اتصل بنزعة هندية .

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٩١/٩٢ .

(٢) ابن الجوزي : صفة . . . ج ٣ ص ١٣٣ وأبو نعيم الحلية ج ٢ ص ٩٣ .

(٣) ابن الجوزي صفة ج ١ ، ٣ ص ١٢٨–١٢٩ وأبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٨٩ .

(٤) ابن الجوزي . صفة الصفوة ج ١ ص ٣١٢ .

(٥) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨/٨٩ .

ونستنتج من هذا أن البصرة عرفت الأديان الهندية منذ ذلك الوقت ، كذلك الامتناع عن الزواج ، فهي محاولة أيضاً لوصله إما بنساك الهنود من البوذيين أو ببعض رهبان المسيحيين . أما اتهامه « بالطعن على الأئمة ، وعدم شهود الجماعة » فكان يعني لدى عثمان أن عامر بن عبد قيس لجأ إلى المقاومة الإيجابية التي قام بها أبو ذر من قبل ، ولم يرد أبداً أن الرجلين قد اتصلا ببعضهما أو أن أبا ذر قد أثر في عامر . ورأى عثمان أن ينفيه إلى الشام ، وخرج إخوان عامر يشيعونه ، وخرج الرجل من بلده غير غاضب ، بل كان يدعو لمن وشى به وكذب عليه ويقول « اللهم أكثر ماله وولده وأصح جسمه وأطل عمره [١] » .

وقدم عامر على معاوية ، وأخذ معاوية يحقق في الأمر ، فتبين له كذب ما أدعى على الرجل ، فلم يكن عامر نباتيًّا على الإطلاق ، ولم يمتنع عن الزواج ، فأرسل إلى والي البصرة أن يرعى الرجل وأن يعمل على إرضائه ولكن عامر بن عبد قيس رفض العودة إلى البصرة . وقال « لا أرجع إلى بلد أستحل أهله مني ما استحلوا » فكان يقيم في سواحل الشام حتى توفي ببيت المقدس ودفن بها [٢] .

كان لعامر بن عبد قيس من الأهمية في تاريخ الحياة الروحية المكان الكبير . كان من العباد الأبناء ولذلك شغل به الجاحظ وأورد الكثير من أقواله في كتابه البيان والتبيين وفي البخلاء . بل جعله في البيان والتبيين على رأس نساك البصرة وزهادها [٣] . ونظفر أيضاً من الجاحظ بأن عامر بن عبد قيس ، لم ينف وحده من البصرة ، بل نفي معه أيضاً زاهد آخر من كبار زهادها هو مذعور بن طفيل . ويورد لنا الجاحظ أيضاً قول عامر – متشوقاً للعراق « ما آسى من العراق إلا على ثلاث « ظماً الهواجر ، وتجاوب المؤذنين ، وإخوان لي منهم الأسود بن كلثوم [٤] » .

أما آراء عامر بن عبد قيس في النسك والزهد وطريقة عبادته ، فنلخصها فيما يأتي : انبثق زهد عامر بن عبد قيس من حلقة قراء البصرة ، وهي الحلقة التي راعها حياة البصرة المترفة – كما قلنا – وإقبال البصريين على لذائذ الحياة بكل ما فيها من معانٍ حسية ، وإهمالهم لحقيقة الآخرة . وكان يقول « وجدت أمر الدنيا تصير إلى أربع : المال والنساء والنوم والأكل ، فلا حاجة لي في المال والنساء ، فأما النوم والأكل – فأيم الله – لئن استطعت ، لأضرن بهما [٥] » . وبدأ زهد عامر « بالخوف من النار »

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨–٨٩ .

(٣) الجاحظ . البيان والتبيين ج ١ ص ٢٣٣ و ج ٣ ص ١١٦ وأنظر المقدسي : البدء ج ١ ص ٧٦ .

(٤) الجاحظ : نفس المصدر ج ٣ ص ٩٣ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٩١ . وابن الجوزي . صفة الصفوة ج ٣ ص ١٣٩ .

وكان هذا الخوف من النار سمة العبادة فى العالم الإسلامى كله . ودعاه هذا إلى التعبد الدائم ، خوفاً من النار وطمعاً فى الجنة «ما رأيت مثل الجنة ، نام طالبها ، وما رأيت مثل النار نام هاربها» فكان إذا جاء النهار قال «أذهب حر النار النوم» «فما ينام حتى يمسى» وإذا جاء الليل قال «من خاف أدلج ، وعند الصباح ، يحمد القوم السرى» وهنا بدأت تنطلق منه أعمق أوصاف الروح

وأخذ ينشد :

قد طارت الصحف فى الأيدى منتشرة ... فيها السرائر والجبار مطلع
فكيف سهوك والأنباء واقعة ... عما قليل ولا تدرى بما تقع
إما الجنان وعيش لا انقضاء له ... أم الجحيم فلا تبقى ولا تدع
تهوى بسكانها طوراً وترفعه ... إذا رجوا مخرجاً من غمها قمعوا
لينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سال قوم بها الرجعى ، فما رجعوا

وأقبلت مرحلة البكاء ، وقد وصف الجاحظ البكاء فقال : هو أعظم ما تقرب به العابدون ، واسترحم به الخائفون . . . وضرب عامر بن عبد قيس بيده على عينه فقال : جامدة شاخصة لا تندى [1] وإذا أصبح الصباح عليه نادى الله فى دلال «يارب الغاوون فى حوائجهم ، وغدوت إليك أسألك المغفرة» [2] ولكنه لا يزال فى مرحلة الخوف من الله ، وقد تعالى عن الخوف من الناس «من خاف الله أخاف منه كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شىء [3] ثم تملكه الحب ، وقد وصل إلى أوج نضجه الروحى ، فيعلن «أحببت الله عزوجل ، حبا سهل على كل مصيبة ، ورضانى فى كل قضية ، فما أبالى مع حبى إياه ؛ ما أصبحت عليه ، وما أمسيت [4] .

وقد وضعه السراج الطوسى فى حال القرب : شهود العبد بقلبه قرب الله منه ، فتقرب إلى الله بطاعته ، وجمع همه بين يدى الله بدوام ذكره فى علانيته وسره ، ويرى السراج الطوسى أن عامر بن عبد قيس ممن تحقق بحال القرب . حين قال «ما نظرت إلى شىء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه منى [5] بل وضعه السراج أيضاً فى حال اليقين ونسب إليه «لوكشف الغطاء ما ازددت يقينا» أى أنه

(١) الجاحظ : البخلاء ٥-٦ .
(٢) ابن الاثير أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨-٨٩ .
(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ، أبو نعيم . الحلية ج ٢ - ص ٨٩/٩٠ وابن الجوزى . صفة الصفوة .
(٤) السراج الطوسى : اللمع ص ٨٤ .
(٥) نفس المصدر ص ١٠٢ .

لا يزداد يقينا حين ينكشف الغطاء ، ويكون فى حال المعاينة ، لما آمن به قبلا من الغيب . ويعلق السراج «وهذا كلام غلبات ووجد وتحقيق [١] .

وبهذا كان عامر بن عبد قيس أول محب فى الإسلام ، وقد أحب الله وثاق إليه ، إلى الحياة الخالدة بجواره .

وأخيراً كان لعامر بن عبد قيس أثر كبير فى مدارس الزهد من بعده . بقى أصحابه فى البصرة يتعبدون ، بل إننا نرى الحسن البصرى يروى عنه ، ويقص لتلاميذه أخباره ، فيذكر أمر الضيعة فى الصلاة ، وأن عامر بن عبد قيس سئل عنها فقال : أتجدونه : قالوا نعم : قال : والله لأن تختلف الأسنة فى جوفى أحب إلى من أن يكون هذا منى فى صلاتى [٢] . كما ذكر الحسن أيضا أنه صفى قلبه من شعبة الولد والأهل [٣] ومدحه الحسن . كما أثر فى الزاهدين مالك بن دينار وقتادة وكانا يتتبعان أخباره . . .

ولم ينتبه الباحثون إلى أثره فى الشام . فقد عاش الفترة الأخيرة من حياته فيها ، ويتكلم ويروى أبو سليمان الدارانى شيخ مدرسة الشام عنه كثيراً [٤] .

وفى أواخر حياته – اختلط الحب بالأحزان ، والعشق بالدلال ، فيسأل عن سر خلقه ، وسر عذابه ويخاطب الله ، فى ألفاظ لم يعرفها عصره ، صارخاً ، طالباً أن يهب له نفسه . . .

فى الدنيا الغموم والأحزان ، وفى الآخرة النار والحساب ، فأين الراحة والفرح . إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى فى خلقى ، وأسكنتنى بلايا الدنيا ثم قلت لى : استمسك . فكيف أستمسك إن لم تمسكنى .

إلهى : إنك لتعلم أن لو كانت لى الدنيا بحذافيرها ، ثم سألتنيها ، لجعلتها لك ، فهب لى نفسى [٥] .

ومرض عامر بن عبد قيس . ودخل عليه أصحابه فبكى : فقيل له أتجزع من الموت وتبكى ، فقال : مالى لا أبكى ، ومن أحق منى بذلك ، والله ما أبكى جزعا من الموت ولا حرصا على دنياكم ، ولكنى أبكى على ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء» [٦] وأخذ يحتضر ، فقال : لمثل هذا المصرع ، فاليعمل

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٢ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٩٢ .

(٣) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ٣ ص ١٣٢/١٣٣ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٦) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ٣ ص ١٢٧ .

العاملون : اللهم إنى أستغفرك من تقصيرى وتفريطى ، وأتوب إليك من جميع ذنوبى : لا إله إلا أنت [١] .

٣ – هرم بن حيان – عاطفة الخوف :

ولم تكن البصرة بخالية من عابد آخر من كبار العابدين ، ينطق أيضا بحقيقة الزهد البصرى فى هذا العصر ، فقد ظهر فيها أيضا ومعاصراً لعامر بن عبد قيس : وهو هرم بن حيان العبدى . وقد سكتت المصادر عن ذكر أية علاقة بين هرم وبين عامر بن عبد قيس . بالرغم من أن كليهما من كبار التابعين ، وعاش الاثنان فى البصرة وفى وقت معاصر ، واتصل الاثنان بالصحابى القديم حممة . كما سنرى بعد قليل . ونسب للاثنين نفس العبارات الزهدية ، وروى سيد عباد البصرة ، الحسن البصرى عن الاثنين .

ونحن لا نعرف الكثير عن حياة هرم بن حيان . قيل إنه ممن اختطوا البصرة لعمر بن الخطاب وروى عن عدد من الصحابة ، ثم استعمله عمر على بعض السرايا ، وأميراً على بعض نواحى البصرة ولكنه زهد الإمارة والولاية وأرسل إلى عمر بن الخطاب يستعفيه .

ويبدو أيضاً أنه كان من القراء ، وتنسب إليه المصادر العلم والفقه كما تنسب إليه الكرامات [٢] .. بدأت عبادته وتزهده بالقراءة ، ثم سافر فى رحلة إلى الخليفة عمر مع عبد الله بن عامر ، وكان والياً لعمر ، ثم لمعاوية فيما بعد . وكان الاثنان على رواحلهما ، وأعناق الرواحل تخالج الشجر . ونظر هرم بن حيان إلى شجر منها . وقال لزميله « أتحب أنك شجرة من هذه الشجر . فقال ابن عامر : لا والله . إنا لنرجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك . فقال هرم بن حيان : لكنى والله لوددت أنى شجرة من هذه الشجر ، قد أكلتنى هذه الراحلة ، ثم قذفتنى بعراً ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، إما إلى الجنة وإما إلى النار . ويحك يا ابن عامر إنى أخاف الداهية الكبرى » فشاهد القيامة أمامه نارها وجنتها ، تسيطر عليه فى كل ما يفعل . والخوف من النار يلون حياته ، فلما استعمله عمر بن الخطاب ، وكان زاهداً فى الولاية ، ظن أن قومه سيأتونه ، فأوقد ناراً كبيرة بينه وبينهم ، فجاء قومه يسلمون عليه من بعيد . فطلب منهم أن يدنوا إليه ، قالوا : والله ما نستطيع أن ندنو منك ، لقد حال النار بيننا وبينك . فقال : وأنتم تريدون أن تلقونى فى النار أعظم منها ، فى نار جهنم [٣] .

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٨٩ .

(٢) السراج : اللمع ص ٣٩٧ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٢٠ .

ورفض الرجل الإمارة كما قلنا ، سواء على المدينة أو فى المغازى وكان يخرج فى الليل ينادى : عجبت من الجنة ، كيف ينام طالبها ، وعجبت من النار ، كيف ينام هاربها ، « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً ، وهم نائمون » ثم يقرأ والعصر وألهاكم التكاثر . ثم يعود إلى بيته ، فإذا رأى أهله يكثرون الضحك ، أمرهم بالصلاة (١) .

ثم اتصل هرم بن حيان بالصحابى الزاهد حممة . وكانا يقضيان الليالى سوياً ، وحممة يبكى ويقول « ذكرت ليلة صبيحتها تبعثر القبور وتناثر نجوم السماء ، فتخرج من فيها .

وكثيراً ما كان الصاحبان ، يصطبحان أحياناً بالنهار ، فيأتيان سوق الريحان فيسألان الله الجنة ، ويدعوان ، ثم يذهبان إلى سوق الحدادين ، فيتعوذان من النار ثم يفترقان إلى بيتيهما (٢).

وحين نزل بهرم بن حيان الموت ، طلب أصحابه منه أن يوصى . فقال : قد صدقتنى نفسى فى الحياة ، ومالى شىء أوصى به . ولكنى أوصيكم بخواتيم سورة النحل . وأخذ يقرؤها « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . إلى الذين هم محسنون » ومات فى يوم قائظ ، فأتت سحابة أظلت سريره أى نعشه ثم أمطرت قبره ، وأنبتت العشب والأزهار والرياحين حول قبره (٣) .

٤ – الأحنف بن قيس ومقام المحاسبة ومقام الصبر .

وظهرت « المعتزلة بالبصرة ». وهى أيضاً تعبير عن روحها العبادية وطبيعتها الهادئة ولم تكن المعتزلة أول الأمر عقلية ، بل كانت عبادية زهدت النزاع والفتنة بين العثمانية والعلوية ، ثم بين العلوية والأموية ورأت نجاة الأمة فى العبادة ولم ترض البصرة أولاً ، أن تتابع شيخها الكبير : الأحنف بن قيس كبير تميم . ولكنها عادت ثانية بعد حرب الجمل إلى اعتزاله .

وكان الأحنف بن قيس من عباد البصرة ، وقد صاحب عمر وعلياً وأباذر وأسند الحديث عنهم . ثم أتى البصرة ، ووضع للبصريين مقام المحاسبة أو مقام النفس اللوامة ، وسيظهر هذا المقام بوضوح لدى الحسن البصرى . كان الأحنف يقضى الليل فى الصلاة والدعاء ، ثم يقبل على المصباح ، فيضع إصبعه فيه ، لكى يحترق بنيرانه ، ثم يقول « حس . . . يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا . . (٤)

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١١٩–١٢٢ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٧ ، ١٣٩ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٢ ص ٥٣ .

(٣) أبو نعيم الحلية ج ١ ص ١٢٢ .

(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٢٤ .

وسنرى الحسن البصرى فيما بعد يقول . « إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه ، دائماً يقول : ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى أو نحو هذا من الكلام [١] ولا شك أن الحسن البصرى قد تأثر خطى الأحنف ابن قيس ، وهو يضع أسس محاسبة النفس ، أو يصور عمل النفس اللوامة فى حياة الإنسان . وقد روى الحسن مراراً عن الأحنف . ومن أهم ما رواه عنه أيضاً قول الأحنف « والله ما سمعت كلمة إلا طأطأت لها رأسى لما هو أعظم منها » .

ولقد رسم الأحنف أيضاً لأهل البصرة طريق الصبر أو مقامه ، فقد ذهب إليه ابن أخيه يشكو وجع ضرسه ، فقال له الأحنف « لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة ، ما ذكرتها لأحد [٢] . وقد أثرت دعوته الاعتزالية إلى الزهد فى أعماق أسرته ، فنرى ابن أخيه إياس بن قتادة التميمى يصرخ فى قومه ، وقد رأى شعيرات من الشعر الأبيض تتخلل ذقنه . . . يا بنى تميم : إنى قد كنت وهبت لكم شبيبتى ، فهبوا لى شيبتى . ألا أرانى حمير الحاجات ، وهذا الموت يقرب منى » ثم قال انقضى العمامة . ثم يصفه ابن الجوزى فيقول « فاعتزل يؤذن لقومه ، ويعبد ربه ، ولم يغش سلطاناً حتى مات » ويقرر ابن الجوزى أيضاً أن إياساً قد أسند عن قيس بن عباد وعن أبى بن كعب . ولكنه تشاغل بالتعبد عن الرواية وقد كان طريق الاعتزال العبادى سمة لكثير من الصحابة فى الحجاز والشام والعراق . اختاروه بديلاً عن عرض الدنيا الذى اختلف عليه الفريقان . بل إننا نرى فى أعماق جيش على ومن أقرب الناس إليه من كان يفضل هذا الطريق الاعتزالى العبادى فهذا الحسن بن على يود لو أن أباه اعتزل الفتنة وذهب بعيداً ، متعبداً ، فإن أراده المسلمون بعد أتوه ، وإن لم يرد ، تركوه فى عبادته . وكذلك محمد ابن الحنفية وهو يحمل الراية يرده « إنها والله الفتنة العمياء المظلمة » وأخيراً نأتى لربانى الأمة ، على نفسه ، وهو سيد العباد والزهاد ، تعتلج نفسه مرارة ، أن وضع يده فى الأمر .

ولكن البصرة تميزت عن جميع البلاد أن اعتزالها العبادى ، كان فعالاً ، كان اعتزالها يتصف بالهدوء العميق . ونحن نعلم أن هذا الاعتزال أدى إلى قيام القدريين أولاً ، ثم المعتزلة العقلية ثانياً . وقد لاحظ الباحثون أن المعتزلة العقليين كانوا عباداً وزهاداً . حقًّا : إنهم لم يمثلوا — فيما بعد : طريق الروح ، وإنما مثلوا طريق العقل . ولكن حدث كل هذا فى بيئة البصرة العبادية الزاهدة .

٥ — أبو العالية الرياحى : ضأن الله :

وعادت فكرة « ضأن الله » و « سائبة الله » تظهر ثانية فى البصرة وهى الفكرة التى ستصبغ

---

(١) ابن القيم : كتاب الروح ص ٢٥٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٢٥ .

التصوف – كما قلنا من قبل – بصبغة حاسمة . وكأن البصرة تريد أن تعطى – وهى ما زالت بعد – فى حياتها الأولى – للتصوف كل ملامحه .

فتدخل امرأة من بنى رياح إلى المسجد وفى يدها – رفيع أبو العالية لتعلن – والإمام على المنبر – أنها أعتقته وتصيح « اللهم – ادخره عندك ذخيرة » اشهدوا يا أهل المسجد ، أنه سائبة لله » ثم خرجت . ولم يرها أبو العالية فيما بعد : ويمضى أبو العالية الرياحى – فى طرقات البصرة – ضأن الله . المهدى إلى حضرته . إسماعيل « ذبيح إبراهيم » وإننا نتساءل : من هو أبو العالية الرياحى – هل هو رياحى – أى من قبيلة بنى رياح – أم هو مولى بالولاء ، أم هو فارسى الأصل . ليس من إجابة على هذه الأسئلة سوى أن امرأة من بنى رياح أعتقته [١] » ولكنه هو يذكر أنه تعلم الكتابة والقرآن ولم يشعر به أهله ولا رئى فى ثوبه مداد قط . ويدلنا هذا على أنه عاش بين أهله ، وبخاصة أنه يذكر مرة أنه تعلم القرآن وقرأه بعد النبى ﷺ [٢] بعشر سنين . ومرة أنه قرأه قبل مقتل عثمان بخمس عشرة سنة . فهل كان أبو العالية عربياً بالولاء ، ونشأ فى بنى رياح ، وتفصح ، وتعلم الكتابة والقرآن » . وتجمع المصادر على أن أبا العالية روى عن أبى بكر الصديق وعمر وعلى وأبى بن كعب وأبى موسى الأشعرى وأبى هريرة وابن عباس فى جماعة من الصحابة ، إلا أنه أرسل الحديث عن بعض هؤلاء [٣] ويبدو أنه كان يتلمس الحديث ، فيسير إلى رجاله ، ويذكر هو نفسه أنه كان يرحل للرجل مسيرة أيام ، فأول ما يتفقد من أمر الرجل ، صلاته . فإن وجد الرجل يقيم صلاته . ويتمها . ويحسنها . أقام وسمع منه . أما إن وجده يضيعها ، رجع ولم يسمع منه وهو يقول « هو لغير الصلاة أضيع [٤] ثم عرف « قصص الأنبياء » السابقين ، وهو من التراث الذى كان ينتشر فى أعقاب عهد عمر بن الخطاب ، وكان يعمل على نشره المستسلمة من اليهود ككعب الأحبار وغيره وكون هذا التراث طائفة « القصاص » . وكذلك نرى أبا العالية يذكر قولا ينسبه لموسى وهو « قدسوا الله عز وجل بأصوات حسنة ، فإنه أسمع لها » ويذكر عن عيسى أنه « ما ترك حين رفع ، إلا مدرعة صوف ، وخفى راع ، وقذافة يقذف بها الطير » [٥] ، وليس معنى هذا أنه تأثر بالإسرائيليات أو بالمسيحيات ، بل إننا نجد شخصية عربية يذكرها هو تحت اسم عبد الكريم أبى أمية يزوره وعليه ثياب صوف . فينهاه ويقول له

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٥ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢٢٢ ، وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٦ .

(٤) أبو نعيم : حلية ، ج ص ٢٢ .

(٥) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢٢١ .

«هذا زى الرهبان ، إن المسلمين إذا تزاوروا تجملوا» فقد عرف الرجل إذاً الرهبانية . وأنها طريق فى الحياة غير طريق المسلمين ، وعرف أن رمز هذه الرهبنة هو لبس الصوف ، فنهى عنه[١] وهذا يدل تمام الدلالة على أن الصوفية لا تنسب إلى هذه اللبسة ، التى عرفت فى وقت مبكر فى تاريخ الإسلام بأنها لباس الرهبان ، هذا مع العلم بأن أبا العالية كان سائبة الله فى البصرة ، يجدد صورة صوفة أو صورة ذبيح إبراهيم . ولكننا نرى أيضا خلال صورة عبد الكريم أبى أمية هذا أن بعض المسلمين لبس «الصوف» دلالة على الرهبنة ، فى هذا الوقت المبكر . ولكن التابعين من العباد رفضوا لبسه كمظهر أو كرسم للعبادة – وقامت فتنة عثمان . فنأى أبو العالية عنها وجل أقواله فى النهى عن الفتنة[٢] وما أحدثته من أهواء متفرقة ، أورثت المسلمين العداوة والبغضاء[٣] . فكان أبو العالية أيضا من المعتزلة الزهاد الأوائل . وكان يصرخ فى الناس بعنف طالبا منهم تعلم «القرآن» . وكان يقضى أوقاته فى قراءته . وكان يرى أن العمل الحقيق لا ينبغى أن يتجه إلا لله ، وإلا وكل الله بالإنسان غيره . ثم وضع أبو العالية مبدأ الطهارة القلبية فكان يفسر التطهير بأنه ليس التطهر بالماء ، ولكن التطهر من الذنب . ومرض أبو العالية مرض الموت ، فكان يقول «إن أحبه إلى ، أحبه إلى الله عز وجل» وتوفى فى شوال سنة تسعين[٤] وبعد : فإن على الباحث فى تاريخ الحياة الروحية فى البصرة أن يلتمس فى بحثه لحياة أبى العالية وأخباره صورتين هامتين «فى تاريخ التصوف الصورة الأولى : هى صورته هو كسائبة الله» أو بمعنى أدق أنه «صورة» «صوفة» الجاهلى ، حارس الكعبة وسادنها ، والصورة الثانية هى صورة عبد الكريم أبى أمية «فى لباس الصوف» الرهبانى ، يلبسه دلالة على زهده ، ولكن فى لبسه محاكاة لرهبان النصارى .

٦ – صلة بن أشيم : وتصور الغوث وفكرة الموت :

والبصرة ما تلبث أن تعطينا فكرة التعبد فى الجبانات ، واللجوء إلى المقابر وما أكثر ما اختلف المسلمون بعد على زياره القبور ، بل التعبد فيها . وسنرى عبد الله بن مسعود فى الكوفة ، وفى هذا العصر المبكر ينهى أصحابه عن التعبد فى الجبانات ، ويأمرهم بالعودة إلى منازلهم .

أما فى البصرة ، فكان أبو الصهباء صلة بن أشيم العدوى من أوائل من اختطوا هذا الطريق . وقد

---

(١) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢١٧–٢١٩ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٢٩ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٤٢ وابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٤٢ .

كان صلة بن أشيم من كبار التابعين ، لقى عدة من الصحابة ، تعلم منهم واقتبس وأسند الحديث عن ابن عباس بالذات وقد كان للرجل من الأهمية الكبرى فى عصره . بحيث نسب للنبى ﷺ حديثاً يقول فيه «يكون فى أمتى رجل يقال له صلة : يدخل الجنة بشفاعته كذا وكذا[١] » . وقد أعتبره معاصروه رجل الشفاعة الكبير ورجل الدعاء ، وهو ما يعرف عند الصوفية فيما بعد «بالغوث» وكانت دعوات الرجل دائماً لأتباعه فى «الترغيب فيما يبقى ، والتزهيد فيما يفنى» وكان لصلة حلقة كبيرة تجتمع حوله ، وبخاصة أنه أتخذ موقفاً سياسيًّا معاديا للحرورية أى الخوارج ، وكان ينهى الناس عنهم ! [٢] وقد كان صلة بن أشيم عنواناً على قبيلة بنى عدى الزاهدة . لقد اشتهرت بعده بالعبادة والزهد ، وخرج منها مجموعة من العباد والعابدات ، وإلى هذه القبيلة أو هذا الفخذ تنتمى رابعة العدوية المشهورة ، وقد قتل صلة بن أشيم شهيداً فى أوائل إمرة الحجاج على العراق[٣] .

كانت دعوة صلة بن أشيم العبادية هى أيضا الخوف من العذاب ، والاستعداد للآخرة . ولذلك لجأ إلى الجبانات يتعبد بها هو وحلقة من رجاله ، وكان يدعو إلى التعبد فى الجبانات فى طرقات البصرة وأطرافها[٤] . وكان شعار صلة بن أشيم الآية «إنك ميت وإنهم ميتون[٥] » . وكان يرى بهذا أن الإنسان نعى فى ميلاده ، فلم يكن الموت عنده حديثاً عجباً ، أو حدثاً نازلاً ، بل كان أمر حتميًّا ، مقرراً فى تاريخ الإنسان . وقد كان يذكر لمعاذة العدوية «ليكن شعارك الموت ، فإنك لا تبالين على يسر أصبحت من الدنيا أم على عسر» .

وقد تزوج صلة بن أشيم بمعاذة ، وتتلمذت عليه[٦] ، فكانت من كبار العابدات فى البصرة ، وكان لمعاذة - كما كان لصلة بن أشيم - أثر فى الحسن البصرى ومدرسته .

وقد كان صلة بن أشيم على صلات ببعض الرهبان ، وكان ينزل فى بعض الأديرة ، وقد أوردت المصادر بعض كرامات صلة[٧] ، وكان منها : وصول طعام ربانى إليه ، دوخلة ملأى برطب ، ثم دخل على راهب فى أحد الأديرة ، وعلم الراهب بالأمر ، فاستطعمه بعض الرطبات ، ثم مر على

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٤٢ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٥) ابن الجوزى . صفة ٣ ص ١٤١ .

(٦) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٧) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٤١ والسراج . اللمع ص ٣٩٧ .

الراهب بعد ذلك ، فإذا نخل حسان جمال فسأل الراهب فقال له : إنهن لمن رطباتك التى أطعمتنى .

ولا ينبغى أن نبالغ فى هذه الصلات بين الزهاد أو العباد الأوائل وبين الرهبان . فكثيراً ما أضفى خيال المؤرخين الكثير فى هذا الصدد . واخترعوا هذه القصص لإثبات سمو العباد من المسلمين على الرهبان من المسيحيين . ومحاولة لإثبات أن بعض زهادِ المسلمين فى استطاعتهم القيام بمعجزات المسيح – نزول المائدة من السماء والعشاء الربانى ، ولكن المستشرقين تلقفوا هذه القصص المخترعة عن مقابلة العباد للرهبان ونزولهم فى الأديرة ، وخيل إليهم أنهم وصلوا إلى نتيجة صحيحة حاسمة وهى أن العباد تأثروا بالرهبان ، وأنهم حاكوهم فى ملبسهم ومشربهم ومطعمهم ، بل فى نظرتهم الفلسفية أو على الأقل التأملية ، وليس فى هذا نوع من الحق على الإطلاق . فقد كانت العبادة فى هذه المرحلة إسلامية بحتة ، وأتخذت العبادة واتخذ الزهد فى هذه المرحلة أساساً هامًّا : هو الجهاد . ولقد استشهد صلة بن أشيم وهو يحارب فى المغازى ، كما استشهد ابنه أمام عينيه . والحروب والمغازى ليست سبيل الرهبان ، ولكنها كانت فرضاً على عباد المسلمين ثم زهادهم ثم صوفيتهم . ولا جرم بعد ذلك أن يقال إن هناك نوعاً من التشابه العرضى بين الاثنين .

٧ – الزاهدات البصريات : معاذة بنت عبد الله :

وتعطينا البصرة أيضاً صورة من المصطفيات من العابدات « أو بمعنى أدق نجد فيها الرائدات الأوليات من النساء العابدات والزاهدات . وسنرى فى بحثنا للكوفة وللمدينة ولغيرهما من البلاد الإسلامية صوراً أخرى من تزهد النساء وعبادتهن . ولكن البصرة كانت أسبق فى هذا المضمار ، وكانت عابداتها أعمق روحاً وأكثر تأثيراً . وكانت الأولى من المصطفيات من عابدات البصرة أم الصهباء معاذة بنت عبد الله العدوية وقد ذكرها الجاحظ فى البيان والتبيين كواحدة من كبيرات الناسكات والزاهدات من أهل البيان [1] . وقد زفت معاذة إلى ابن عمها صلة بن أشيم . وكانت ليلة زفافها عبادة « روحية لله » . ولم تكن هذه العبادة – من نوع الرهبنة – أو العزوف عن الزواج ، وإنما كانت تصفية روحية ، لحياة زوجية طويلة ، ورباط يتم بكلمة الله . وقد كان لصلة ولمعاذة أبناء بعد ذلك .

وقد أخذت معاذة عن عائشة الحديث ، ثم أخذت طريق العبادة عن زوجها شاركته فى ليالى التعبد الطوال . ويقول أبو السوار العدوى – مشيداً بعبادة بنى عدى « بنو عدى أشد أهل هذه البلدة اجتهاداً ، هذا أبو الصهباء لا ينام ليله ولا يفطر نهاره وهذه امرأته معاذة ابنة عبد الله لم ترفع رأسها إلى

(١) الجاحظ : البيان التبيين ج ١ ص ٢٣٢ و ج ٢ ص ١١٦ .

السماء أربعين عاماً [١] » . ويروى ابن الجوزى عنها أنها كانت إذا جاء النهار تقول – هذا يومى الذى أموت فيه – فما تنام حتى تمسى وإذا جاء الليل – قالت – هذه ليلتى التى أموت فيها فلا تنام حتى تصبح . وكانت تلبس « الثياب الرقاق فى البرد حتى يمنعها البرد من النوم . وكانت تجول فى الدار وهى تقول « يا نفس : النوم أمامك لو قدمت لطالت رقدتك فى القبور على حسرة أو سرور » . وتردد « عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد فى ظلم القبور » ويستشهد زوجها وابنها فى إحدى المغازى . وتجتمع نساء بنى عدى عندها فقالت معاذة : مرحباً : إن كنتن جئتن لتهنئتى فمرحباً بكن ، وإن كنتن جئتن بغير ذلك ، فارجعن » .

وتحدث رضيعة لها – هى أم الأسود بنت زيد العدوية ، بعد مقتل زوجها وولدها « والله – يا بنية – ما محبتى للبقاء فى الدنيا للذيذ عيش ولا لروح نسيم ، ولكنى والله أحب البقاء لأتقرب إلى ربى عز وجل بالوسائل ، لعله يجمع بينى وبين أبى الصهباء وولده فى الجنة » .

وتحدث فتاة أخرى أرضعتها فتقول لها « يا بنية كونى من لقاء الله عز وجل على حذر ورجاء وإنى رأيت الراجى له محقوقاً بحسن الزلفى لديه يوم يلقاه ورأيت الخائف له مؤملا للأمان يوم يقوم الناس لرب العالمين . . . ثم بكت وغلبها البكاء [٢] كانت دعوة معاذة إذن إلى العبادة والانقطاع لها ! خوفاً من النار ورجاء فى الله بحسن التقرب إليه . كانت تمثل مرحلة بين الخائفين – وهو تعبير يطلق على هؤلاء الذين كانوا فى خوف من النار ، واشتهرت به البصرة وبين المحبين الذى تخلصوا من الخوف وأحبوا الله رغبة لا رهبة .

وأخيراً نزل بها مرض الموت ، وأخذت تحتضر ، فبكت ، ثم ضحكت . ولما سئلت عن السبب فى بكائها ثم ضحكها . قالت : أما البكاء الذى رأيتم ، فإنى ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر ، فكان البكاء لذلك . وأما الذى رأيتم من تبسمى وضحكى ، فإنى نظرت إلى أبى الصهباء ، قد أقبل فى صحن الدار ، وعليه حلتان خضراوان – وهو فى نفر – والله ما رأيت لهم فى الدنيا شبهاً ، فضحكت إليه . . . » ثم ماتت . وقد روى عن معاذة عدد من كبار الزهاد والعباد وعلى رأسهم الحسن البصرى وأبو قلابة ويزيد الرشك [٣] كانت معاذة عابدة ومحبة عبدت الله وأحبته ، كما أطاعت زوجها وأحبته ، بل كانت فى شوق عارم لقائه . . . ويذكر الحسن البصرى : أن معاذة لم توسد فراشاً بعد أبى الصهباء حتى ماتت . وكل هذا يؤكد لنا عظم الخلاف بين العابدات المسلمات والراهبات وبين العابدين المسلمين وبين الرهبان .

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١١–١٥ . (٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٢ -١٣ .

الفصل الثانى

مدرسة البصرة الثانية

مدرسة الحسن البصرى : الخوف والبكاء :

وهكذا مرت الحياة الروحية فى البصرة فى مرحلتها الأولى – وقد عرضنا صوراً منها ، وتركنا صوراً [1] وإلا طال بنا المقام . وننتقل إلى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة تكاد تكون متممة للأولى ، غير أنها تميزت بظهور أول مدرسة رسمية للعبادة فى البصرة ، وهى مدرسة الحسن البصرى .

١ – مقدمات مدرسة الحسن البصرى : مطرف بن عبد الله بن الشخير ومدرسته :

ولقد انعكست الأضواء على هذه المدرسة ، واحتل صاحبها الحسن البصرى ، أعظم مكانة فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية . وقد أدى هذا إلى إهمال شخصيات ممتازة سبقته بسنين غير طويلة ، بل عاصرته فى فترة من حياته وحياة مدرسته . وأهم هذه الشخصيات هى شخصية مطرف بن عبد الله ابن الشخير الحريشى وأخيه يزيد .

ولقد كان مطرف بن عبد الله بن الشخير سلطاناً من سلاطين العابدين ، وزاهداً من أعمق الزاهدين فى تاريخ الإسلام ، ولقد أثر فى عدد من كبار الصوفية من بعده .

ولد مطرف بن عبد الله بن الشخير لصحابى هو عبد الله بن الشخير . ولقد أسند مطرف عن أبيه ، كما أسند عن عثمان بن عفان وعلى وأبى بن كعب وأبى ذر [2] ونزلت الأسرة فيما يبدو – فى ماء نسبت إليهم ، فكان يقال لها « الشخير » وكانت على بعد ثلاث ليال من البصرة [3] وحفظ مطرف وأخوه القرآن . وتتلمذا فيما بعد على عامر بن عبد قيس وكانا يحضران حلقاته [4] ثم أصبحا من القراء .

---

(١) تركت صورة أبى رجاء عمران بن ملحان العطارى ، وهو أيضاً عابد من كبار العباد والقراء وتلميذ لأبى موسى الأشعرى .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٠ هامش ١ .

(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٤ .

ويصف مطرف القراء ، حين يقرأ الآية « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية يرجون تجارة لن تبور» ويقول : هذه آية القراء [١] . ويذهب الجاحظ إلى أن مطرف بن عبد الله كان أيضاً من القصاص . وقد انتشر القصاص فى هذه المرحلة من حياة البصرة ، وكان معاصر مطرف الشاب « أبو الحسن البصرى » قاصًّا أيضاً [٢] .

وكان مطرف بن عبد الله من أعيان قومه وكبارهم ، وكان يلبس أول أمره الملابس الفاخرة ظاهراً أمام الناس ، ولكن حين يعود إلى بيته ، ينقلب عابداً من كبار العباد يقول ابن الجوزى «كان مطرف يلبس البرانس ، ويلبس المطارف ، ويركب الخيل ، ويغشى السلطان ، غير أنك كنت إذا أفضيت إليه ، أفضيت إلى قرة عين [٣] ولما مات ابنه عبد الله بن مطرف ، خرج إلى قومه فى أجمل ثياب ، وهو متعطر . فعاتبه قومه بل غضبوا « يموت عبد الله ثم تخرج فى ثياب مثل هذه مدهناً » قال « فأستكين لها . وقد وعدنى ربى تبارك وتعالى ثلاث خصال ، كل خصلة منها أحب إلى من الدنيا كلها . قال الله عز وجل (الذين إذا أصابتهم مصيبة ، قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) فأستكين لها بعد هذا [٤] ولكن ما يلبث الرجل أن يعود نهائيًّا إلى الغليظ من الثياب ، وأخذ يعتبر هذا الملبس الخشن ، قربة إلى الله ، فلبس الجبة وأخذ العصا [٥] بل لبس « الصوف » . بحيث يذكر أحمد بن أبى الحوارى عن شيخ مدرسة الشام الكبير أبى سليمان الدارانى أن « مطرف بن عبد الله لبس الصوف وجلس مع المساكين . فقيل له فى ذلك . فقال – إن أبى كان جباراً ، فأحببت أن أتواضع لربى عز وجل ، لعله يخفف عن أبى تجبره [٦] ويتبين لنا – من هذا النص – أن الصوف كان لباس المساكين ، وكان الأغنياء يلبسونه تعبداً – للتقرب من الله ، ولكن لم يمنع هذا – كما قلت من قبل – من أن بعض العباد كرهوا لبسه لأنه لباس الرهبان . ونلاحظ أن مطرف بن عبد الله كان من ثراة البادية ، وكان عامة البدو يلبسونه ، أما هو فكان يلبس المطارف والغالى من الثياب ، فرأى – حين أفعمت العبادة فى قلبه ، أن يعود إلى لبس المساكين ، ولا نرى فى حياته ولا فى كلماته ظلاً من ظلال الرهبنة المسيحية . بل كان يعود إلى الإسلام الأول ، إسلام العبادة . وتأمل قصر الحياة « لا تنظروا إلى خفض عيشهم ولين ثيابهم ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم [٧] » .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٠٣ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبين ج ١ ص ٢٣٤ .
(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٥ .
(٤) نفس المصدر : ج ٣ ص ١٤٦ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٠٩ .
(٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٠٠ .
(٧) الجاحظ : البيان والتبين ج ٣ ص ٩٠ .

كان مطرف بن عبد الله – مثال العابد القرآنى ، يشغل ليله بالقرآن ؛ يقول فى أثر له من أجمل الآثار يصف تعبده الليلى :

إنى لأستلقى من الليل على فراشى فأتدبر القرآن ، وأعرض عملى على أهل الجنة ، فإذا أعمالهم شديدة .

كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . يبيتون لربهم سجداً وقياماً أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً .

فلا أرانى منهم .

فأعرض نفسى على هذه الآية «ما سلككم فى سقر» فأرى القوم مكذبين .

وأمر بهذه الآية «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» .

فأرجو أن أكون أنا وأنتم – يا إخوتاه منهم [1] . كان الرجل إذن يعيش متنقلاً فى أعماقه بين مشاهد الجنة ، ومشاهد النار ، وكان يأمل فى رحمة الله ، أكثر من خوفه من عقابه . فكان يردد «يا إخوتاه : اجتهدوا فى العمل ، فإن يكن الأمر – كما نرجو ، كانت لنا درجات فى الجنة ، وإن يكن الأمر شديداً ، كما نخاف ونحاذر . لم نقل : ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل . نقول – قد عملنا «فلم ينفعنا ذلك» وأقواله كثيرة طافحة بهذا المعنى . بل كان يذهب دلالاً على الله – إلى أن يطلب وهو على جبل عرفة ألا يرد الله الناس – من أجله هو «اللهم لا ترد الجميع من أجلى [2] .

وكان يفتش فى أعماق النفس . ويتمنى لو كان له نفسان ، تراقب الواحدة الأخرى ، حتى لا ... فى الشر «ولكن إنما لى نفس واحدة ما أدرى على ما تهجم ؟ : خير أو شر . ولكنه أخذ يدعو إلى أخلاقية باطنية ، حددها فى مراحل ثلاث : صحة النية ، ويستتبعها صلاح العمل ، فينشأ عن الإثنين صلاح القلب . ودعا إلى ترويض النفس أمام الملأ فى كثير من أقواله ودعا مطرف إلى الصبر مع الإبتلاء ، والشكر مع العطاء ولكنه تمنى العافية مع الشكر ، وفضلها عن الابتلاء مع الصبر . بل يدعو إلى السكون «لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً ، أحب إلى من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً» ويردد دائماً إن عدم الفعل ، أحب إليه من الفعل [3] ، ثم محاسبته على هذا الفعل فيما بعد . حالة من السكون أرادها لنفسه ، ولعشيرته . ولقد فعل هذا لأنه : نأى بعشيرته عن الخروج مع الحرورية من الخوارج كما نأى أيضاً عن المجتمعات السرية التى كان يعقدها زهاد الشيعة . فقد دعى إلى اجتماع فى أول خانقاه

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٤٥ ، ١٤٦ وأبو نعيم الحلية ج ٢ ص ١٩٩ .

(٣) أبو نعيم الحلية ج ٢ ص ٢٠٠ .

للصوفية أنشأه العابد الشيعى زيد بن صوحان . وكان زيد يعظ ويقول : يا عباد الله أكرموا وأجملوا ، فإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين : الخوف والطمع . . ثم نسق المجتمعون كتاباً شيعياً – على هذا النسق « إن الله ربنا .ومحمدا نبينا ، والقرآن إمامنا . ومن كان معنا . كنا وكنا له . ومن خالفنا كانت يدنا عليه وكنا وكنا » ثم يضع الكتاب عهداً [١] يبدو أنه عهد بموالاة الإمام الشيعى أو الإمام ذى الملامح الغنوصية ويقال إن صعصعة بن صوحان عبر بعد ذلك عن هذا الإمام الغنوصى حامل الأسماء خليفة الله فى أرضه متعرفاً عليه فى الإمام على ولكن مطرف بن عبد الله يرفض أن يقر هذا العهد .

ويسأله زيد بن صوحان عن سبب رفضه ، فيجيب مطرف : إن الله قد أخذ على عهداً فى كتابه ، فلن أحدث عهداً سوى العهد الذى أخذه الله عز وجل على . ومطرف هنا يشير إلى العهد الذى أخذه على المؤمنين ، فى عالم الذر ، حين كان البشر جميعاً فى أصلاب آبائهم ، أو أصلاب أبيهم الأول آدم : فقال : أولست بربكم ، قالوا . . . بلى » وهذا هو عهد الله فى قرآنه الذى يذكره مطرف ابن عبد الله . ولذلك رفض العهد الذى وضعه الكتاب الشيعى السالف الذكر .

وقد نأى مطرف بن عبد الله عن الفتنة ، فتنة عثمان ، ثم فتنة على ومعاوية . ويذكر قتادة : وكان مطرف إذا كانت الفتنه نهى عنها وهرب . وكان الحسن البصرى ينهى عنها ولا يبرح . كان مطرف إذن ينهى الناس عن الفتنة ويقول لهم « إن الفتنة ليست تهدى الناس ، ولكن إنما تأتى تقارع المؤمن عن دينه ، ولأن يقول الله – لم لا قتلت فلاناً ، أحب إلى من أن يقول : لم قتلت فلاناً » كان يقول مطرف هذا ، فإذا أقبلت ، ولا مناص ، فر هو . بينما كان الحسن البصرى ينتهى عن الفتنة ، ولكنه لا يترك مكانه ، يقف فى وجه العواصف العاتية التى مر بها العالم الإسلامى موقفاً صلداً . وهذا كان أحد الاختلافات الكبرى بين الرجلين . ثم كان الاختلاف الأخير : أنه أنكر القدرية وحاربها ، وكان الحسن البصرى – قدرياً فى فترة من حياته . فكان مطرف يقرر أن الإنسان مجبر جبراً كاملاً . بل ذهب إلى أنه كالحجر ، إن جعل الله فيه خيراً ، كان ويستشهد بالآية « ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور » وأخذ مطرف يهاجم القدرية فيقول « إن ها هنا أقواماً يزعمون أنهم إن شاءوا دخلوا الجنة ، وإن شاءوا دخلوا النار » ثم يقسم مطرف ويقول « أن لا يدخل الجنة عبد أبداً ، إلا عبد شاء الله أن يدخله إياها عمداً » وليس للإنسان من خيرة على الإطلاق ، لا فى أعماله ولا فى خطراته ، فلا يستطيع أن يولج فى قلبه شيئاً من شر أو خير حتى يكون الله يضعه . وكان يضع المسألة للناس فى صورة بسيطة عميقة « ليس لأحد أن يصعد فيلقى نفسه من فوق البئر ، ويقول : قدر لى ، ولكن يحذر ويجتهد ويتقى ، فإن أصابه شىء ، علم أنه لم يصبه إلا ما كتب الله له . ثم يحدد رأيه النهائى فى القدر فيقول

(١) أبو نعيم : الحلية . . ج ٢ ص ٢٠٤ .

« إن الله عز وجل لم يكل الناس إلى القدر ، وإليه يعودون ، وإليه يصيرون (١) .

وبالرغم من موقف مطرف بن عبد الله الجبرى ، موقف العابد المستسلم لمشيئة الله وأمره ، فإنه يؤمن بقدرة العقل ، ويقرر أنه « ما أوتى عبد بعد الإيمان أفضل من العقل » وإن كانت عقول الناس تتفاوت على قدر زمانهم بل إنه ليعجب من عدم تجاوب القلوب مع صرخات الحق ، وعدم إصاختها للحديث الإلهى الملقى إليها فيقول فى زفرة حرى « كأن القلوب ليست منا وكأن الحديث يعنى به غيرنا (٢) .

وقد نسبت الكرامات لمطرف بن عبد الله ، كان يغمى عليه ، فتسطع منه الأنوار . كما نسبت إليه الدعوة المستجابة . وحين قبض الحجاج على مورق العجلى وحبسه ، دعا مطرف بعضاً من مريديه — وطلب منهم أن يؤمنوا على دعائه ، ففعلوا . وفى العشاء أمر الحجاج بإطلاق مورق (٣) . وكان مطرف يذهب من البادية كل يوم جمعة إلى المدينة ، وكان يمر بالمقابر ، فيتوقف ويصيبه النعاس . وتذكر الرؤية أنه رأى أهل القبور على أفواه القبور . . . وحادثهم فكانت زيارة القبور والتعبد فيها سنة عند الكثيرين من عباد البصرة . وقد حفظت لنا المصادر أدعية مطرف بن عبد الله ، وهى أدعية حارة تصدر من قلب كبير حقًّا . ومن الأمثلة على هذه الأدعية : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه . وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أوف به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى فيه ما قد علمت . . . إلخ وقد احتفظ لنا الجاحظ فى البيان والتبيين بالكثير من مواعظه (٤) .

ومات مطرف بن عبد الله عام ٨٨ هـ . وقد تابع عبادته أخوه أبو العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير . وقد تميز أبو العلاء بمقام الرضا . وحفظت الصوفية بعده بعض كلماته « اللهم رضيت لنفسى ما رضيت لى . وكان يجتمع مع الحسن البصرى فى المجالس ، وكان المجلس يتكلم وهو صامت . فلما طلب من يزيد بن عبد الله الكلام . قال : أو هناك أنا . . . (٥) .

كانت صور العبادة فى البصرة تتعدد وتتنوع قبل ظهور مدرسة الحسن البصرى ، وكانت هذه الصور مقدمات حتمية لظهور هذه المدرسة ، أثرت فيها وعاشت خلال أراتها . ومعظم شخصيات هذا العهد كانت على صلات بالحسن البصرى نفسه (٦) .

---

(١) أبو نعيم : الحلية : ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢ .
(٢) الحلية : جـ ٣ ص ١٠٣
(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٠٦ / ٢١٧ .
(٤) الجاحظ : البيان . . ج ٣ ص ١٠٣ ومواضع أخرى متعددة .
(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٣ ، وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٦) وأهم شخصيات هذا العدد : صفوان بن محرز المازنى التيمى وأبو الحلال العتكى الأزدى وزرارة بن أوفى الحرشى وأبو النوار حسان بن حريث العدوى ، وخليد بن عبد الله العصرى وميمون بن سياه .

إننا نرى صورة العبادة فى الأسراب . كان البكاؤون الخائفون يلجأون إلى بعض الأسراب ، يأوون فيها للعبادة ويبكون . وكان عن هؤلاء صفوان بن محرز [١] وكان يكتفى برغيف عيش ، وشربة كوز ماء . ثم يردد بعد أن يفطر عليهما « على الدنيا وأهلها العفاء » وكان إذا تحدث أو قص « يرق القوم وتسيل الدموع ، انتشر القصاص إذن – قبيل ظهور الحسن البصرى ثم بعد ظهوره . وكان من تقاليد هؤلاء القصاص – هجر أهل الأهواء والبدع ، وتلك ستة ساروا عليها جميعاً ، وبالأخص الحسن البصرى فيما بعد فى أرجح الأقوال – وكذلك فعل صفوان بن محرز . قد أثر صفوان بن محرز فى الحسن البصرى أشد تأثير بحيث كان يقول « لقيت أقواماً كانوا – فيما أحل الله ، أزهد منكم فيما حرم الله ، وقد لقيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق أن لا تقبل منهم من سيئاتهم ، ولقد صحبت أقواماً كان أحدهم يأكل على الأرض ، وينام على الأرض ، منهم صفوان بن محرز » .

وتسمع فوق أسطح البصرة وفى الليالى الظلماء أصوات العباد تعلو تذكر الناس بفناء دنياهم – فيتسلق عابد مشهور – هو زرارة بن ربيعة الأزدى المشهور بأبى الحلال العتكى فوق غرفة من غرف مسكنه ويشرف على كل ركن من الأركان الأربعة وينادى « . . . يا فلان . . . يا فلان . . . » ثم يقول « هل تحس منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً . . . ويناجى الله فيقول : اللهم لا تسلبنى القرآن » [٢] .

وتظهر « فكرة الابتلاء » فى البصرة . وستعرف بعد فى تاريخ العباد . فيبتلى أبو السوار العدوى ، ويضرب بالسياط . ويتذكره الحسن البصرى فيقول « والله لا تذهب أسواطه » وبقيت ذكرى أبى السوار فى قلب أحمد بن حنبل – فيما بعد . فحين امتحن ابن حنبل ، وضرب بالسياط ، ذكره أحد أصدقائه « أما ، ترضى أن تكون عند الله بمنزلة أبى السوار العدوى » فاسترجع ابن حنبل . وكان أبو السوار العدوى ذا طبيعة حادة ، فها هو يجتمع بالعابدة معاذة العدوية بالمسجد ، ويجادلها فى حضورها إليه ويطلب منها أن تمتنع عن الحضور ، وأن تستقر فى بيتها . إن حضورها إلى المسجد – وهى العابدة المتبتلة يفتن الرجال . فترد عليه معاذة بحدة : ولم تنظر . اجعل فى عينيك تراباً ولا تنظر . فيجيب العابد الكبير : إنى والله ما أستطيع إلا أن أنظر . إنه يقرر لها حقيقة الطبيعة الإنسانية ، وتفهم معاذة ثم تعتذر . وتقول « إذا كنت فى البيت شغلنى الصبيان ؛ وإذا كنت فى المسجد كان أنشط لى » فيجيب أبو السوار : النشاط أخاف عليك [٣] وكان أبو السوار يسير فى زى المساكين ، ويتحمل أذى الناس فلا يجيب . وكان يقرأ « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » ويعلق على هذا فيقول : هما نشرتان

(١) كان من التابعين ، أسند الحديث عن عبد الله بن عمر وأبى موسى الأشعرى وعمران بن حصين وحكيم بن حزام : أبو نعيم : الحلية ج ٢ ، ص ٣١١ – ٢١٧ وابن الجوزى ج ٣ ص ١٤٩ – ١٥٧ – والجوزى البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٩٠ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٥ ص ١٥١ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٥٠ / ٢٥١ .

وطية – أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك منشورة ، فأصل فيها ما شئت . فإذا مت طويت ، ثم إذا بعثت نشرت « اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا [١] » .

كما تظهر فكرة الصعق فى البصرة . وقد رويت عن بعض من الصحابة ، وأنكرها البعض ، وقد مثل هذا الحال من الصعق فى هذه الفترة زرارة بن أوفى الحرشى . وكان من كبار القصاص [٢] . وكان يحدث دائماً عن « الحال المرتحل » وهو حال السائح فى القرآن ، يضرب فى أوله حتى يبلغ آخره ، وفى آخره حتى يبلغ أوله . حال المتقلب فى الكتاب ، يعيش فى مقاماته وأحواله – بلغة التصوف فيما بعد . وقد بلغ الحال المرتحل بزرارة بن أوفى مداه ، حين كان يقرأ « فإذا نقر فى الناقور » ، فشهق . ومات [٣] .

وأخيراً . . . نرى فكرة الحب الإلهى تظهر وضاءة فى البصرة وعلى يد رجل من بنى عبد قيس . إذ يعلن خليد بن عبد الله البصرى « يا إخوتاه – هل منكم من أحد لا يحب أن يلقى حبيبه ، ألا فأحبوا ربكم ، وسيروا إليه سيراً كريماً » [٤] .

٢ – مدرسة الحسن البصرى :

انتهت مراحل العبادة المتعددة وصورها المتنوعة إلى مدرسة الحسن البصرى . واحتل شيخ المدرسة فى تاريخ الفكر الإسلامى مكانة لم يدانها من سبقوه أو من عاصروه من مفكرى الإسلام وباهت البصرة به على مدن العالم الإسلامى كله ، وادعته الفرق المختلفة والاتجاهات المتباينة لنفسها . فصدر عنه مختلف الآراء ومتناقض الأفكار ومتباين النظريات أو جعلته الفرق ينطق بها . وجمع فيه كل شىء . بحيث يمكننا أن نقول إن أسطورة الحسن البصرى كانت أضخم أسطورة فى العالم الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولسنا نحاول هنا توضيح الجوانب المختلفة لآراء الرجل ، وتبين ما ينسب له وما لا ينسب ، وما يصح له وما لا يصح . إنما نريد فقط أن نعرض لمكانته فى تاريخ الحياة الروحية فى الإسلام ، والانطلاقة الروحية التى انبثقت منه ومن مدرسته . وقد قلت إن الحسن البصرى كان عابداً ، بل انتهى

---

(١) أسند أبو السوار العدوى عن على بن أبى طالب وعمران بن حصين وغيرهما . انظر أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢٤٩ – ٢٥١ وكذلك ابن الجوزى : صفة . . ج ٣ ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(٢) أسند زرارة بن أوفى الحرشى عن جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وعمران بن حصين وابن عباس وتوفى سنة ٩٣ هـ .

(٣) أبو نعيم : ج ١ ص ١٥٩ – ١٦٠ وابن الجوزى ج ٣ ص ١٥١ .

(٤) أسند خليد بن عبد الله البصرى عن أبى الدرداء – أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ١٣٢ – ١٣١ – وابن الجوزى ج ١ ص ١٥١ – ١٥٤ .

إليه كل صور العبادة قبله ، فأحياها فى نفسه وفى رجاله . وقد دعا هذا الصوفية من بعده إلى اعتباره مرحلة اتصال فى السلاسل الصوفية التى وضع فيها – بين الرسول وصحابته ، وبين أجيال المسلمين . وقد تتبع العالم الكبير الدكتور إحسان عباس السلاسل الصوفية التى احتل الحسن البصرى مكانة فيها ، وانتهى إلى أنه أصبح للحسن البصرى فى شجرة التصوف ثلاثة فروع على الأقل . الفرع الأول : الرسول عليه الصلاة والسلام – حذيفة – الحسن – المحاسبى . ومع ما فى هذه السلسلة من خلل ، فإنه من المتعذر تماماً أن يكون الحسن أخذ عن حذيفة علم الأسرار ، فإن الدكتور إحسان عباس يرى أن هذا الفرع أوثق الفروع وأصحها نسباً من حيث المبدأ . فالحسن يشبه حذيفة ، وقد تأثر المحاسبى بالحسن أشد تأثير . ويتبين هذا فى ارتباط أفكار الحسن والمحاسبى . وقد سرت هذه السلسلة إلى شمال أفريقيا . فإن ليو الأفريقى يذكر أنه قابل فى بعض مدن شمال أفريقيا فرقة صوفية أخلاقية يعلن رجالها أن إمامهم الأول هو الحسن البصرى ، ومن بعده الحارث المحاسبى .

أما الفرع الثانى – فيتكون – من النبى وعلى والحسن البصرى وحبيب وداود الطائى ومعروف الكرخى . ويبدو الحسن هنا واسطة بين الرسول وابن عمه من ناحية ، وبين تلامذة الحسن – حبيب العجمى ومن بعده من ناحية أخرى .

ويرى الدكتور إحسان عباس أن وصل الصوفية الحسن بعلى يلحظ منه محاولة الصوفية نسبة مذهبهم إلى باب مدينة العلم [١] . ويستخلص منه الدكتور كامل الشيبى صلة الزهد بالتشيع وصدوره عنه [٢] . وفى الحق إن الحسن البصرى كان يعلم يقيناً أن على بن أبى طالب هو ربانى الأمة وأنه سيد عباد المسلمين . وأن طريقته هو فى العبادة تشبه طريقة على . ولكن لا عن تشيع ، كان الحسن البصرى أبعد الناس عن التشيع لعلى أو عن التشيع ضده . لقد أحب الجميع وتولى الجميع ، ولكن زهد على وعبادته كانا يجذبان إلى ابن عم الرسول قلوب العباد والزهاد . وهذا ما فعله الحسن البصرى .

أما الفرع الثالث . فيتكون من الرسول – وأنس بن مالك والحسن ، وفرقد السبخى ومعروف الكرخى والسرى السقطى ، فالجنيد فالخلدى [٣] .

ويتبين لنا من هذا أهمية الحسن البصرى فى تاريخ الزهد والتصوف ، أو بمعنى أدق تتبين لنا أهمية الأسطورة . كان للحسن البصرى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين صورة تختلف تماماً عن صورة العابد البصرى القديم . إننا نرى – وكما لاحظ الدكتور إحسان عباس بحق – أنه لما سئل الحلاج فى

---

(١) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصرى ص ١٠ .

(٢) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣١٦ .

(٣) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصرى ١٠ / ١١ .

أثناء محاكمته فى بغداد – من أين استمد نظريته فى الحج بالهمة – أجاب بأنه أخذها من كتاب الإخلاص للحسن البصرى ، فصاح القاضى فى وجهه كذبت ياحلال الدم . قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا » .

وهذا يدل على الروح الأسطورية التى لاحقت الرجل ، والكتب ذات النزعات المتعارضة التى نسبت إليه . لقد نسب إليه الجبر والقدر ، ونسب إليه التشيع والتسنن ، فلا عجب أن ينسب إليه الحلول والحج بالهمة وأن يتعلق بأذياله الحلاج ، كما سيتعلق بأذياله العدد العديد من الناس . ولقد أوصلوه بحذيفة بن اليمان ، وأنه تلقى منه الأسرار ، وهذا محال . كما أوصلوه برابعة العدوية ، واصطنعوا بينهما الأحاديث . ولم يحدث هذا فقط . ولكن لا يقدح هذا فى الصورة العارمة المليئة الحقيقية للحسن البصرى .

إن أبرز ما فى ميلاد الحسن البصرى ، أنه لم يولد عربيًّا بل ولد (عام ٢١ هـ) فى المدينة من أب فارسى – فى الأرجح ، أسر فى ميسان حين استولى العرب عليها ، وكان والده نصرانيًّا ، ثم أسلم ، وتسمى باسم يسار وتزوج من أمة أيضاً بالمدينة واسمها خيرة . ولما ولد لها الحسن أعتقا . وكانت أمه محدثة وقاصة ، وقد أثرت فى حياة ابنها أكبر تأثير وشهد الحسن الثورة على عثمان ثم الأحداث السياسية التى مرت بالمدينة ، ثم انتقلت أسرته إلى البصرة ، وكانت الأحداث تتلاحق وتلم الفرقة بالمسلمين . ولست فى حاجة هنا أن أعرض لموقف الحسن البصرى من حوادث السياسة الإسلامية فى هذا الوقت وأثرها فى مبادئه وفى زهده وفى ميقات حياته . لقد تكفل الدكتور إحسان عباس كما قلت – فى كتابه العبقرى بالتحدث عن كل هذا تحليلاً وتركيباً . إن النتيجة الحتمية لهذه الدراسة أن عبادة الحسن البصرية انعكست فيها كل أحداث الحياة فى العالم الإسلامى ، ثم صبغها هو بصبغته الخاصة ، ولم تكن هذه الصبغة ببعيدة عن روح العبادة فى البصرة ، كانت حظًّا مشتركاً بينهم جميعاً . ولكن الحسن البصرى أضفى عليها من روحه هو الشىء الكثير .

كان الحسن البصرى معاصراً لعدد كبير من الصحابة ، أرسل الحديث عن بعضهم . وسمع من بعضهم ، وأثر فيه من بينهم عبد الله بن عباس ، فقد جذبه ابن عباس إليه بمنهج التفسير الذى اختطه ، كما استمع إلى قصصه ، وهى ما يعرف بالإسرائيليات ، أخبار السابقين من الأمم ، ومن ثم دخلت فى تراث الحسن البصرى نفسه وفى كلامه . ثم تتلمذ الحسن البصرى على مجموعة من عباد البصرة الكبار ، وبخاصة عامر بن عبد قيس ، وصلة بن أشيم وصفوان بن محرز ، أو بمعنى آخر اندرج الحسن البصرى شيئاً فشيئاً فى طائفة القراء . وأصبح – بعد مضى الجيل الكبير من التابعين وممن كانوا – أسن منه إلى حد ما – أقول أصبح الحسن البصرى شيخ القراء . ونراهم يلجأون إليه فى أثناء ثورة ابن

الأشعث يستفتونه فى الخروج . فيأبى عليهم . ثم نراه بعد ذلك ينهاهم – وهم وقوف على باب أمير البصرة عمر بن هبيرة – ينتظرون الإذن بالدخول عليه ، فيقول « ما يجلسكم هاهنا . تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء . أما والله ما مجالستهم بمجالسة الأبرار . تفرقوا – فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم . لقد لقحتم نعالكم ، وشمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم . فضحتم القراء فضحكم الله . أما – والله – لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم . لكنكم رغبتم فيما عندهم . فزهدوا فيما عندكم . أبعد الله من أبعد [١] » . هذا الزجر لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل تصدر إمامة القراء وأصبح سيدهم .

وقد قرر المتأخرون من مؤرخى الصوفية أن الحسن البصرى كان من أوائل من تنبه إلى أخذ التصوف من الصوف وأنه كان لباس العباد من الصحابة . فينسبون إليه أنه قال « والله لقد أدركت سبعين بدريًّا أكثر لباسهم الصوف » بل إنه رأى فيهم مجانين الصوفية « ولو رأيتموهم قلتم : مجانين . ولو رأوا خياركم لقالوا : ما هؤلاء من خلاق . ولو رأوا شراركم لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب » [٢] ثم يضع الصوفية على لسانه : أنه يصف عيسى فيقول إن إدامه الجوع وشعاره الخوف ولباسه الصوف ، كما أنه يصف النبى سليمان بأنه كان إذا جنه الليل « لبس المسوح وغسل اليد إلى العنق وبات باكياً حتى يصبح ، يأكل الخشن من الطعام ويلبس الشعر من الثياب » [٣] بل إن السراج الطوسى يذهب إلى أن الحسن البصرى قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفيًّا فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه . وقال : معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى [٤] » .

كانت الغاية من كل هذا وضع الحسن البصرى فى نسق التصوف العام ، وأنه كان سابق المتصوفة ومقدمهم ، فهو – فى نظر متأخرى الصوفية – أول من لبس الصوف ، وأنه استن هذه السنة ، متابعاً ، لعباد الصحابة . بل إنه يتشبه بعيسى وسليمان – ثم إنه أول من لبس الخرقة ، ألبسه إياها على ، ثم موضعه فى السلاسل الصوفية ، المشد ، بين الرسول والصحابة ، وبين بقية رجال الصوفية .

ولم يكن هذا صحيحاً . فلم يكن الحسن البصرى أول من لبس الصوف لبسه غيره وكانوا فعلا يعرفون باسم أصحاب الصوف ، وكان منهم عبد الكريم أبو أمية ، وكان زهاد المسلمين الكبار ينهونهم عن لبس الصوف ، لأن فيه تشبهاً برهبان النصارى . ولا شك أن الحسن استمع إلى كل هذا . ولم نجد

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٥١ ، وابن الجوزى : ج ٣ ص ١٥٨ ، ١٩٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٣٤ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٣٧ .

(٤) السراج الطوسى : اللمع ص ٤٢ .

الحسن يسمى هؤلاء بأسماء المتصوفة أو الصوفية بل الأرجح أنه كان يسمى أصحاب الصوف أو الزهاد عامة الذين يلبسون الخشن من الثياب بأصحاب الأكسية . بل إنه يخاطب تلميذه فرقداً السبخى : ويقول له : مالك ، مالك يا فريقد . أترى أن لك فضلاً على إخوانك بكسيك هذا . لقد بلغنى أن عامة أهل النار : أصحاب الأكسية (١) . أما أنه ذكر تعبيراً صوفيًّا ، وأنه قابل صوفيًّا فى الطواف ، فهى مسألة تحتاج إلى بحث أعمق شامل فى صوفة هل هى صوفة القديمة ، فرداً من أفراد هذه القبيلة التى عرفت فى الجاهلية بالعبادة والتزهد ولم يلبس على الحسن الخرقة ، ولم يكن بين الاثنين علاقة باطنية أو علاقة تلميذ بأستاذه – كان الحسن « عثمانيًّا » معتدلاً ، أحب عثمان وأحب عليًّا ، يعرف لعثمان عظيم بلائه فى الإسلام ، وشراءه لبئر رومة ، وتجهيزه لجيش العسرة ، ويقربه لعثمان دعته وحياؤه ، ويعرف لعلى عبادته ، وقربه من الله ورسوله ، بحيث كان على الصحابى الوحيد الذى دعاه الحسن ربانى هذه الأمة ، ولكن لم نقرأ أبداً أن الاثنين قد تقابلا فى جلسات روحية أو عبادية ، أو استمع الحسن لعلى استماعاً خاصًّا . قيل إن عليًّا استمع إلى قصصه فى مسجد البصرة ، فتركه يقص ، بينما أخرج غيره من القصاص ويشك المؤرخون فى هذا ، فلم يكن الحسن فى هذا الوقت فى سن تؤهله للقصص أو لتصدر حلقة فى المسجد . وحين هاجر يسار من المدينة ، اتجه إلى البصرة – العثمانية ، ولم يذهب إلى الكوفة – الشيعية . بل إن البيهقى يذكر أن الحسن البصرى تقلد سيفه وذهب ليحارب مع أم المؤمنين عائشة – فى واقعة الجمل ، ولكن الأحنف بن قيس رده عنها قال له : والله ما قاتلت مع رسول الله ﷺ المشركين ، فكيف تقاتل معها المؤمنين (٢) . وقد لاحظ الدكتور إحسان عباس بحق أن هذه الرواية – وإن كانت خطأ من الناحية التاريخية ، لأن الحسن أيام الجمل كان لا يزال فى المدينة – إلا أنها تمثل اتجاه الحسن البصرى العام – وهو اعتزال الفتنة . فلم يرض الحسن البصرى عن عائشة – وهى فى غيها – تفرق كلمة المسلمين ، كما أنه لم يرض عن « شيعة على » تقتل عثمان أولاً ، ثم تنشب الحرب الضارية بين المسلمين . ولكن الحسن البصرى – فى وسط كل هذه الأحداث – أحب عليًّا سيد العابدين بلا منازع .

وأخيراً – لا نجد اتصالاً بين الحسن البصرى(٣) وبين الحلقة الصوفية الغنوصية فى البصرة – وهى حلقة زيد بن صوحان – كانت هذه الحلقة الغنوصية الغامضة ، والتى لم تكشف وثائقها بعد – كانت هذه الحلقة قد تكونت ، وقد رأينا وصف مطرف بن عبد الله بن الشخير لها وكيف انبثقت فيها فكرة الإمامة الكبرى ، أو الخلافة الكبرى ، خلافة آدم لله ، ثم خلافة على له ، والعهد الأول ، والعهد الثانى –

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) البيهقى : المحاسن والمساوى ص ٤٩ .

(٣) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصرى ص ٢٦ – ٢٧ .

وقد أنشأ زيد بن صوحان أول بيت صوفى ، أو بالمعنى الاصطلاحى – أول خانقاه للصوفية . ولجأ إلى هذا البيت عباد البصرة الفقراء ، يتشاغلون فيه بالعبادة ويقيمون حلقات الذكر وجعل زيد بن صوحان من أهله من يقومون بأمر هؤلاء فى طعامهم ومشربهم [١] ولم يكن هذا طريق الحسن البصرى . لقد أعده أهله من قبل وفى بيوت المدينة الهادئة ، ليكون قارئاً ، والقراءة كانت تعنى فى هذا الوقت حفظ القرآن وسماع الحديث ، ومعرفة الأقضية – أى الفقه – ثم العبادة والانقطاع لها .

ثم حين أتى البصرة ، ورأى مشيخة العباد من حلقة القراء ينحون منحى العبادة والتنسك ، ولجه أيضاً ، ونشأ القصص ، أو انتشر القصاص وكان على معرفة بأخبار السابقين من الأنبياء ، فأصبح قاصًّا واجتمعت فيه كل علوم عصره واتجاهاته ، وتولى القضاء لفترة . أما أنه استحدث التصوف فهذا ما لا يثبته النقد العلمى للنصوص . وإن كل ما يمكن أن ينسب للحسن البصرى فى نطاق المصطلح هو أنه ذكر مصطلح الزهد ، والفقيه الزاهد فقد سئل الحسن عن شىء يقول الفقهاء فيه كذا كذا ، فقال : وهل رأيت فقيهاً بعينك ، إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه عز وجل [٢] وذكر السراج الطوسى أيضاً أن الحسن قد سئل : أكثر الناس تعلم الأدب فما أنفعها عاجلاً ، وأوصلها آجلاً . قال : التفقه فى الدين ، فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين ، والزهد فى الدنيا فإنه يقربك من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك ، يحويها كمال الإيمان [٣] إذا صح عليك أن هذين النصين للحسن البصرى ، فيكون هو أول من أطلق كلمة الزهد وكلمة الزاهد بالمعنى العبادى ، وإن كان فى الإمكان – من ناحية نقدية داخلية – تحقيق صحة نسبة النص الأول له ، فإن النص الثانى يحوى تعديداً لمراحل التصوف – الفقه ، ثم الزهد ، ثم المعرفة – تعديداً لم يعرفه الحسن البصرى ولم يعرفه عصره .

قصارى القول فى الحسن البصرى إنه كان عابداً من عباد المسلمين ، تكلم فى البصرة بكلمات رهيبة عن الجنة والنار ، فكان من طائفة الخائفين التى اشتهرت بها البصرة ، بل كان أكبر رجل فيها . ذلك أن الآخرين من قبله أرادوا فقط تأديب نفوسهم وتأديب حلقة صغيرة معينة تلتف حولهم ، بينما نصب الحسن البصرى نفسه لإنقاذ المجتمع البصرى مما فيه من ضلال وبالتالى المجتمع الإسلامى كله ، وحمل على عاتقه مسئولية الناس جميعاً ، فكان ذو العمامة السوداء بين أخصاص البصرة ، كما كان يدعوه الحجاج ، سيد البصرة جميعاً ، بل حاكمها الحقيقى حتى وفاته عام (١١٠ هـ) .

---

(١) ابن عساكر : التهذيب ٦٨ ص ١٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) السراج الطوسى : اللمع ص ١٩٤ .

أما آراء الحسن البصرى فى إيجاز فهى :

أراد الحسن البصرى أن يتلمس « المثل الأعلى » ورأى هذا المثل فى الماضى : فى عصر الأمجاد ، عصر الصحابة . هؤلاء الذين « كانت الدنيا أهون على أحدهم من تراب قدميه » هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ، ولوكان بهم خصاصة « ولقد رأيت أقواماً يمسى أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً . فيقول : لا أجعل هذا كله فى بطنى ، لأجعلن بعضه لله عز وجل ، فيتصدق ببعضه ، وإن كان أحوج مما يتصدق به عليه » (١) بل لعل أبلغ وصف لهؤلاء الصالحين من الصحابة أنهم « ألزموا الكد والعبر ، وألطفوا التفكر ، وصبروا على مدة الأجل القصير ، عن متاع الغرور الذى إلى الفناء يصير ، ونظروا إلى عاقبة مرارتها ولم ينظروا إلى عاجلة حلاوتها . ثم يقرر أن هؤلاء الصحابة ألزموا أنفسهم الصبر ، أنزلوها من أنفسهم بمنزلة الميتة التى لا يحل الشبع منها إلا فى حال الضرورة إليها ، فأكلوا منها بقدر ما يرد النفس ويقى الروح « رأوا الدنيا نتنا وجيفة ، فعافوها ، وزهدوا نتنها ، وكم كانوا يعجبون من الأكل منها شبعاً ، والمتلذذ منها أشرا : وكانوا يتساءلون فى أنفسهم عن رواد الدنيا : أما ترى هؤلاء لا يخافون من الأكل ، أما يجدون ريح النتن . عجباً إن قوماً استعجلوا الصبر ، ولم يجدوا عن الدنيا مناصاً ، فلم يدخل أنوفهم الريح المنتنة ، لأنهم نشأوا فى ريح الإرهاب النتن ، فلم يجدوا نتنه ، ولم يعرفوا أذاه ، فعاشوا فيه ما عاشوا ، ولم يجدوا عنه بديلا (٢) .

ونظر إلى نفسه وقارن بينه وبين هؤلاء فصاح : لقد أدركت أقواماً ما أنا عندهم إلا لص (٣) .

وأخذ يقارن بين هذا المثل الأعلى الإنسانى وبين قومه فبكى أسفاً على الناس وعلى نفسه « والله ما سن الناس رجل أدرك القرن الأول أصبح بين ظهرانيكم ، إلا أصبح مغموماً وأمسى مغموماً » فساد الحزن حياته وكونه « ما يسع المؤمن فى دينه إلا الحزن » . وأكثر البكاء كسابقيه من العباد ، وجعله سنة للناس جميعاً .

ولم يبق من ذكريات العصر الأول إلا القرآن . والقرآن مفتاح الحزن المقيم « والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل ، وإلا نصب وإلا ذاب » ويكرر هذا المعنى كثيراً « والله يا ابن آدم ، لئن قرأت القرآن ، ثم آمنت به ، ليطولن فى الدنيا حزنك وليشتدن فى الدنيا خوفك ، وليكثرن فى الدنيا بكاؤك » . ولذلك قال البصريون « ما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة » ولذلك حرم على نفسه الضحك . وقد فعل الزهاد هذا من قبله ولكنه ذهب هو بالتحريم إلى أقصى مداه « تضحك ! ولا ندرى لعل الله

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٨ وانظر أيضاً ١٥ .

(٣) ابن الجوزى : ج ٣ ص ١٥٦ .

قد اطلع على بعض أعمالنا . فقال : لا أقبل منكم شيئاً . ويحك يا ابن آدم هل لك بمحاربة الله طاقة ؟ » .

وقد أراد للمجتمع الإسلامى أن يؤمن بالقرآن ، والإيمان بالقرآن ، ونفاذ صوته إلى القلوب إنما معناه الحزن والبكاء ، أن ينتقل الإنسان بين تفاهة الحياة وضآلتها وبين مشاهد القيامة الخالدة . لقد أعلن القرآن « موت الحياة » « وخلود القيامة » . ولا بد لضمان هذا الخلود من إقامة الحداد على الحياة عاجلاً . إن الحياة مأتم يتكرر كل يوم (١) .

وقد تساءل الباحثون عن علة الخوف فى آراء الحسن البصرى وكتاباته وكلماته . هل كانت مشاهد القيامة حقًّا هى السبب فى هذا . هذا جانب يفسر لنا علة خوفه . ولكنه لم يكن السبب الحقيقى الكامل فى نظرة الحسن البصرى للأمر . إن علة الخوف عند الحسن هى الحزن – الحزن على قصر الحياة . وقد دفعه هذا إلى الخوف من الموت . فكان يجزع أشد الجزع عند رؤيته ، ولم يكن يلقاه بهدوء وثبات ، بل يراه مخيفاً قاسياً . وأداه هذا الخوف إلى التشوف إلى الحياة الآخرة ، إلى الخلود السرمدى فى حضرة الله وفى جنانه ونعيمه . أراد أن يستبدل الذى هو أقصر وأكثر فناء بالذى هو أطول وأكثر دواماً . فكرة الدنيا وحذرها . وهاهو يرسل إلى عمر بن عبد العزيز « وليس ما يفنى وإن كان كثيراً ، يعدل ما يبقى ، وإن كان طلبه عزيزاً ، واحتمال المؤونة المنقطعة التى تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤونة باقية » . فهذه الدنيا – التى تبدو كثيرة طويلة هى آن قصير فى الزمان العظيم ، الذى يبقى ، « فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة الحائلة التى قد تزينت بخدعها ، وغرت بغرورها ، وقتلت أهلها بأملها ، وتشوفت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ، العيون إليها ناظرة والنفوس لها عاشقة ، والقلوب إليها والهة ، ولألبابها دامعة ، وهى لأرواحها كلهم قاتلة » نعم هى قاتلة لهم جميعاً ، فلا تبقى واحداً منهم ولا تذر . فعجباً أن يتعلق بها المتعلقون ويفرح بها الفرحون . وليست هى إلا وهماً وسراباً .

ولقد سيطرت على الحسن فكرة قصر الحياة ، فكان ينظر إليها من جميع أبعادها « ابن آدم ، إنما أنت عدد . فإذا مضى يوم . فقد مضى بعضك (٢) ويقول مرة أخرى « أعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها . وضع عنك همومها . لما عاينت من فجائعها . وأيقنت به من فراقها . فالقلة والفراق إذن هو ما يزعج المتأمل لها . البقاء فيها إلى الفناء . وليس فيها بالتالى سرور بحت . بل سرورمشوب بالحزن ولن يبقى فيها باق « إنها تزيل الثاوى الساكن والماضى لن يعود أبداً . والمستقبل مجهول . وهى

---

(١) أبو نعيم الحلية ج ٢ ص ١٣٣ / ١٣٤ .

(٢) الحافظ : البيان والتبين ج ٣ ص ٨٦ .

قصيرة كل القصر [١] فلا بد أن تكون نظرتنا إليها «نظرة [٢] الزاهد المفارق» لا نظرة «العاشق الوامق» وامش الهوينى . وطأطأ الأرض بقدمك «إنها عن قليل قبرك إنك منذ سقطت من بطن أمك . وأنت لا تزال فى هدم عمرك» ويصيح فى الناس «ابن آدم إنك تموت وحدك . وتدخل القبر وحدك . وتبعث وحدك وتحاسب وحدك . ابن آدم : وأنت المعنى وإياك يراد .

وكان الحسن يعلم تماماً مافى دعوته من صعوبة على الناس . وقد كان هو معلماً كبيراً . وقد دفعته روحه التعليمية إلى ولوج باب من التصوف .

فبدأ يتحدث عن موضوعات فى علم إرادة النفس ، وهو العلم الصوفى الخطير الذى سيتضح فيما بعد لدى صوفية الإسلام على وجه الحقيقة . لم يكن الحسن البصرى واضع هذا العلم . ولكن كان من الرواد الأوائل فيه – خلال بعض نماذج وصلتنا عنه .

كان الحسن يرى أن أهم خطوة لتصفية النفس هو إحياء القلب وصلاحه والقلب هو المسيطر على الجوانح ، وهو الذى يسبب الدمعة الغاسلة للخطايا . يذكر ابن الجوزى أنه بينما كان الحسن فى المسجد ، إذ أخذ يتنفس نفساً شديداً وبكى حتى أرعدت منكباه . ثم قال «لو أن بالقلوب حياة ، لو أن بالقلوب صلاحاً ، لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة . إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة» [٣] .

فكان يطلب من مريديه أن يخاطبوا القلوب ، وأن يراقبوا الأنفس «حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور ، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلى شر غاية ، وإنكم إن لم تقاربوها ، لم تبق من أعمالكم شيئاً ، فتصبروا وتشددوا فإنما هى ليال تعد ، وإنما أنت ركب وقوف ، يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ، ولا يلتفت فانقلبوا بصالح ما حضرتكم» وكان يعرف أن «هذا الحق» هو وحده الذى يجهد الناس ، ويحول بينهم وبين شهواتهم ، ولا بد من الصبر حتى نتخلص من الشهوات ، ولا تصح العبادة ، حتى نتخلص من الخطايا ، وقد قال له شاب «أعيانى قيام الليل ، فأجاب الحسن . قيدتك خطاياك [٤] . ولم يرد منهم مناجاة القلوب ، وقدع النفوس وزجرها فحسب ، بل أراد أن يخلق فيهم الإرادة القوية ، والعزم كان يراهم يبكون ، إذا استمعوا إليه فكان يصيح فيهم فى لباقة نادرة «عجيج كعجيج النساء ولا عزم ، وخدعة كخدعة إخوة يوسف إذ جاءوا أباهم عشاء يبكون [٥]» .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣) ابن الجوزى : صفة . . ج ٣ ص ١٥٦ .

(٤) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ٣ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٥) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ١٩٦ .

ولكى يتكون العزم ولكى تتكون الإرادة ، ينبغى على الإنسان أن يصيب حقيقة الإيمان ، والطريق إليه هو مراقبة عيوب النفس ، والتجاوز عن عيوب نفوس الآخرين أو لا تعيبهم بعيب هو فيك « حتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك ، فتصلحه ، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا وجدت عيباً آخر لم تصلحه ، فإذا فعلت ذلك ، كان شغلك فى خاصة نفسك وأحب العباد إلى الله تعالى ، من كان كذلك » وبهذا كان يرمى الحسن البصرى إلى صلاح الفرد عن طريق مراقبة النفس ، ويأس من صلاح الجماعة ، قبل إصلاح الفرد . فإذا تم إصلاح النفس ، وهو أمر عسير ، إنها رياضة متجددة تولد العزم . أى الإرادة الحقيقية المسيطرة .

ولذلك نادى بمحاسبة النفس « إن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله عز وجل . وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة » إن المؤمن الكامل عند الحسن البصرى يفجؤه الشىء ويعجبه ويشتهيه أشد الاشتهاء ويرى أنه من حاجته . ولكنه ينادى « والله ما من صلة إليك – هيهات هيهات – هيهات – حيل بينى وبينك . ويفرط منه الشىء ، فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالى ولهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله أحاديث النفس بين الاشتهاء والحرمان ، بين مطالبها ، وزجرها هكذا حياة المؤمن . ويصيح الحسن إن المؤمن فى وثاق القرآن « يحول بينه وبين التهلكة ، المؤمن أسير فى الدنيا « يسعى فى فكاك رقبته [1] ، لا يأمن شيئاً ، حتى يلقى الله « إنه مأخوذ عليه فى سمعه وبصره ولسانه وجوارحه ولقد كان للحسن البصرى أكبر الأثر فى الحارث المحاسبى فى أحاديثه ، عن القلب وفى المحاسبة فقد طور الحارث المحاسبى هذه الأحاديث إلى مذهب متكامل فى علم إرادة النفس ، وانتقل هذا الأثر فيما بعد إلى أبى حامد الغزالى . وبهذا القدر من أحاديث النفس ومحاسبتها ، والغوص فى أعماقها ، كان الحسن البصرى – معلم البصرة وكبير عبادها – صوفيًا ، بل شيخاً له قدمه الثابتة فى التصوف .

(١) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ٣ ص ٥٧ / ٥٨ .

الفصل الثالث

تطور مدرسة البكاء وطائفة البكائين والمصدر الخارجي

١ – العوامل الداخلية :

كانت أميز ظاهرة لدى عباد البصرة هو الخوف والحزن ، وطريق الخوف والحزن وأداتهما البكاء . وقد بدأ الخوف والحزن والبكاء لدى أوائل هؤلاء العباد : عامر بن عبد قيس ، بل دعا إليه شيخ قراء البصرة : أبو موسى الأشعرى ، ثم وصل كل هذا – الخوف والحزن والبكاء إلى مداه لدى الحسن البصرى ، وسنراه – بعد قليل أعمق وأعمق لدى تلامذته ، العرب والفرس منهم بل الأرمن أيضاً . جميعاً فى حلقة إسلامية لا نظير لها فى تاريخ الإنسانية كلها . وسنرى « البكاء » أيضاً فى الكوفة لدى صوفيتها ولدى أتباع على – هؤلاء – الذين تسموا – فيما بعد – بالشيعة . وسنراها لدى عابد من كبار عباد أهل البيت ، ومن العترة النبوية ، ومن شجرة فاطمة الزهراء ، الإمام على بن الحسين ، المعروف بزين العابدين . وينشأ البكاؤون على أثره ، وسينتشر بعده التعبير « أرق من دمعة شيعية » . . . وبعد :

فما هو مصدر هذا البكاء سواء فى مدرسة البصرة أو فى مدرسة الكوفة أو فى مدرسة على بن زين العابدين فى المدينة ، أو بمعنى أدق ما هو مصدر الحياة الروحية الإسلامية فى هذا العصر المتقدم .

إن من الواضح تماماً أن الرجل العادى من المسلمين كان يفجؤه منظر هؤلاء العباد فى البصرة وفى الكوفة وفى المدينة . لم يكن الإسلام يتطلب هذا الحزن القائم ، هذا الخوف المتغول ذا القشعريرة ، هذا السيل المنهمر من البكاء والدموع اللادعة . كان الإسلام – أو كان المسلمون – الرائحون والغادون – فى مجارى الحياة فى هذا الوقت يأملون فى رحمة الله أكثر مما أمل هؤلاء الخائفون :

لم تكن لفكرة « قصر الحياة » اليونانية هنا مدخل . آمن هؤلاء الخائفون بخلود الفرد « روحا وجسماً » . ولأجل هذا الخلود الفردى الأخروى ، رأوا قصر الحياة الأرضية . وخافوا العقبى فى الآخرة . إنهم عرفوا أن الحياة هنا سير قصير ، وأن الحياة هنالك مستقر مقيم فأرادوا التحلل من الأولى ، لضمان الثانية . وتأملوا مناظر النار المستعرة فى القرآن ، فشغلتهم أشد الشغل ، ولم يروا غيرها .

إن صورة النعيم نفسها كانت باهتة فى أنظارهم ، أو أمراً بعيد المنال . كل ما رأوه فقط أشكال النار العاتية . فبكوا وبكوا فى ذلة وانكسار ، حتى يدخلوا على الله «الجبار» من جانب الضعف . وكانت المناظر – كما رأينا – أمامهم قرآنية بحتة . وقد عاون على رسم هذه الصورة – الحياة الإسلامية كلها سياسية واقتصادية .

لقد قتل الخليفة عثمان ، فبكى أهل البصرة بكاءاً حقيقيًّا ، لقد قتل الصاحب الحيى الوديع ، الذى ملأ الدنيا عبادة وقرآناً ، والذى أعطاه محمد ﷺ ابنتيه ، وآمن إليه ووثق به . مات فتى قريش وسيدها . حقًّا . إنه حمل بنى معيط وبنى أمية على رقاب المسلمين ، ولكن مقتله فى يوم شؤم قاتم ، أفزع قراء البصرة وزهادها . ونسوا أن أحد عماله قال : «إنما هذا السواد بستان لقريش [١] » ولكن ما لهم ولهذا ، إن الصاحب الثالث لرسول الله كان البقية الباقية من عصر الأمجاد الكبار ، عصر مطلع النور وانبثاقه . . . وها هو مسجى بدمائه ، والكتاب الإلهى الذى جمعه على صدره . والفتن باب الزهد .

وقتل الخليفة على ، فى يوم أشد شؤماً وأكثر قتامة . قتل أكبر العباد «وسيد الصحابة» و«ابن عم الرسول» و«زوج» فاطمة الزهراء الجميلة و«باب مدينة العلم» و«حامل الأسرار» وبكت الكوفة وبكت البصرة وبكت الحجاز. بكى العالم الإسلامى كله ، وعاف الناس الحياة .

وتولى بنو أمية رقاب المسلمين ، وتحكم فى البصرة الطلقاء وأولاد الطلقاء ، كما تحكموا فى الكوفة ، وأصبح السواد فعلاً بستاناً لقريش . ويأتى كما يعبر الحسن البصرى «ذلك الغلام السفيه الجبان» عبيد الله بن زياد ، ابن مرجانة ، وحفيد الزنا والفسق ، يتخذ له قصراً يسميه البيضاء ، ويزينه بالصور «وينظم لنفسه حرساً من البخارية وينتحل مظهراً كسروياً وأبهة فارسية [٢] » يسفك الدماء ، ويقتل أبناء الأنبياء ، ويتعالى على الصحابة ويبادى ، ويحاول إذلالهم بكل ما أوتى من سلطان وقوة وحيلة . . . وتعبد العابدون وزهد الزاهدون ، وتركوا الدنيا وراء ظهورهم . . . واتجهوا إلى صور الآخرة فبكوا وبكوا . . .

وكانت البصرة ثغر التجارة ، أتى إليها العرب والفرس والهند ، كما أتى إليها النصارى واليهود . وازدادت غنى ، بل اغتنى أيضاً عدد كبير من الصحابة ، ومن رجال الصفة أنفسهم . وأصبح الإنسان يسود «بالدينار» وقام أبو ذر الغفارى بدعوته ، كما قام عامر بن عبد قيس . وانعكس كل هذا على المجتمع البصرى ، كما انعكس على المجتمع الكوفى . ورأى الكثيرون أن حقيقة الإسلام ، غير هذا . فلجأوا للعبادة ، وبكوا وبكوا .

(١) الطبرى : تاريخ : مجلد ١ ج ٦ ص ٢٩١٥ . (٢) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصرى ص ٣٦ .

كانت كل هذه العوامل الداخلية ، أى المنبثقة من صميم الحياة الإسلامية هى الداعية إلى قيام هذه العبادة الحزينة ، أو هذا الحزن العبادى ، كانت رد فعل لكل ما فى المجتمع الإسلامى من آلام وآمال ، وأفراح وأحزان .

٢ – العوامل الخارجية :

ولكن الباحثين فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية لا يقنعون بهذا ، ويحاولون رد هذا الحزن إلى عوامل خارجية ، أو على الأقل كانت هناك – فى نظر هؤلاء المستشرقين – عوامل خارجية عاونت على قيام هذا النوع القائم من الحزن ، بالإضافة إلى العوامل الداخلية المنبثقة من الإسلام كدين يحض على الزهد ، ومن المجتمع الإسلامى المتطور .

ويرى الباحثون من الغربيين أن أهم العوامل الخارجية التى أثرت فى قيام الزهد فى المجتمع البصرى خاصة هى المسيحية أو بمعنى أدق الرهبنة المسيحية بما فيها أيضاً – وعلى الخصوص – من ظاهرتى الحزن والبكاء . ومشكلة أثر المسيحية فى التصوف مشكلة محيرة فعلاً .

والباحثون يتساءلون دائماً إلى أى مدى حصل الاتصال بين رهبان المسيحيين وبين الزهاد أو العباد الأوائل ، وبأى معنى تحقق الأثر والمؤثر ، وإلى أى مدى أخذ هذا من ذاك أو ذاك من هذا ويتصدى الآن لبحث هذا الموضوع الخطير – كما ورد فى المصادر العربية – العلامة العراق الدكتور كامل مصطفى الشيبى . وسنحاول نحن هنا – طبقاً لما لدينا من مصادر – إلقاء بعض الأضواء على هذا الموضوع المتشعب النواحى .

أما أن اتصالات تمت بين المسلمين والمسيحيين ، فهذا مما لاشك فيه . تجاوروا فى مصر وفى الشام ، كما تجاوروا فى ما بين النهرين ، وحين أنشئت البصرة والكوفة ، أتى المسيحيون ، كما أتى اليهود إليهما . بل كان المسيحيون فى مدينة رسول الله . ونرى واحداً منهم مملوكاً لعمر بن الخطاب هو : وثيق ابن الرومى . وقد طلب منه عمر بن الخطاب أن يسلم ، حتى يستعين به على أمانة المسلمين ، لأنه لا ينبغى أن يستعين على أمانة المسلمين بمن ليس منهم ، ولكن وثيقاً أبى . وتركه عمر وقال « لا إكراه فى الدين » فلما حضرت عمر الوفاة أعتقه وقال له : اذهب حيث شئت (١) . كان المسيحيون هنا وهناك : وانتشرت الكنائس والأديرة فى البلاد المفتوحة ، وقد رأينا كيف دعى بعض عباد المسلمين بالرهبان ، بل نرى واحداً من هؤلاء العباد يدعى « بمهار الراهب » وتذكر المصادر عنه أنه « كان من العاملين لله فى دار الدنيا » وكان يتردد دائماً على مجلس عيسى بن زاذان بالأبلة ، وكان يقابل هناك

(١) السهروردى : عوارف المعارف ص ٨٣ و ٨٤ .

«مسكينة الطفاوية» ، وكانت مسكينة أيضاً من تلميذات حلقة ذكر ابن زاذان . ولما توفيت رآها فى منامه ، ولما ناداها باسمها مسكينة : قالت : هيهات يا عمار : ذهبت المسكنة وجاء الغنى الأكبر [١] . وكما رأينا وسنرى أيضاً زيارات العباد للأديرة حقًّا كان هناك ما يفصل بين طريق الرهبنة وطريق العبادة الإسلامية : وهو الزواج . وقد تواترت الأحاديث فى نهى الرسول ﷺ عن العزوبة ، واعتبارها من تقاليد الرهبان ، وليست من سنة الإسلام ، ولكننا نرى عامر بن عبد قيس يمتنع عن الزواج ، وتحقق الدولة معه فى هذا . حقًّا ، إن حادثة فردية لا توسم العبادة الإسلامية الأولى ، أو الزهد الإسلامى الأول بصبغة مسيحية ، قد تزوج العباد جميعاً ، وكانت لهم الأسرة والولد ، بل تزوجت العابدات — كمعاذة ورابعة العدوية وشعوانة بنت إسماعيل ، تزوجن جميعاً ، ولكن حادثة عامر بن عبد قيس — برغم كل هذا تسترعى النظر وتستوقفه . وسنرى بعد — أبا سليمان الدارانى ، كيف يمجد العزوبة ، وينأى هو عن الزواج ، سنرى هذا أيضاً فى مدرسة بغداد لدى بشر بن الحارث المشهور ببشر الحافى .

وقد رأينا أيضاً صوراً من لبس الصوف ، والصوف لباس الرهبان ، فهل أخذه هؤلاء العباد من الرهبان المسيحيين ، أم أن الصوف كان لباس عامة العرب الفقراء ، وقد لبسه هؤلاء العباد — حين تقمش الأمويون وطغاة أهل الشام بالطيلسانات والديباج والخز — لقد رأينا وسنرى كيف ينهى كبار العباد ويزجرون من يلبس الصوف من أتباعهم ، فالحسن البصرى يسخر من فرقد السبخى — وكذلك حماد بن سلمة . كما رأينا أيضاً من ينهى عبد الكريم أبا أمية عن لبسه . ولكن هذا يعنى أن اتصالاً قد تم بين بعض العباد وبعض الرهبان .

وأخيراً — إن بعض هؤلاء العباد كانوا من أصول مسيحية ، فقد كان الحسن البصرى ابناً «ليسار» فارسى مسيحى . كما كان فرقد السبخى فى بعض الأقوال — أرمنيا . فهل كان هناك أثر من آثار الدين القديم فيهما ، أو بمعنى آخر ، هل ثمة تعاطف حضارى داخلى ورائى بين عبادتهما الجديدة ودينهما القديم .

بل إننا نجد اسم «راهبة» بين أسماء المسلمات فى ذلك الحين — فيذكر ابن الجوزى أن أم عثمان بن سودة الطفاوى كانت من العابدات ، ويقال لها «راهبة» . ويبدو أن هذا كان اسمها الحقيقى ، ولم يكن «وصفاً» أطلق عليها . إننا لا نجد فى تراثها ما يدل على أثر مسيحى سوى اسمها . كل ما لدينا من أخبار عنها ، أنها حين احتضرت ، رفعت رأسها إلى السماء وقالت «يا ذخرى ويا ذخيرتى ، ويا من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ، ولا توحشنى فى قبرى» فماتت . ويذكر ابنها عثمان بن سودة أنه كان يأتى قبرها فى كل جمعة فيدعو لها ولأهل القبور ويستغفر . ثم رآها ذات ليلة فى

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٨ و ٢٩ .

منامه . فقال لها : يا أماه كيف أنت . قالت : أى بنى إن للموت لكربة شديدة ، وأنا بحمد الله لى برزخ محمود ، نفترش فيه الريحان ، ونتوسد فيه السندس والاستبرق إلى يوم النشور . فقال لها : ألك حاجة . قالت : نعم : لا تدع ما أنت عليه من زيارتنا والدعاء لنا ، فإنى أبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من عند أهلك . يقال لى : يا راهبة : هذا ابنك قد أقبل من عند أهله زائراً لك فأسر بذلك ، ويسر بذلك من حولى من الأموات [١] » ومع أننا لا نجد – كما قلت فى هذا – تراثاً مسيحيًّا ، إلا أن مجرد تسميتها براهبة يدل على ما كان فى قلوب المسلمين من احترام ومودة للرهبان والراهبات . كما يذكر أيضاً أنه كانت لرابعة بنت إسماعيل الزاهدة الشامية أخت سميت أيضاً براهبة . وذكرت رابعة لزوجها الصوفى أحمد بن أبى الحوارى أنها «دخلت على أخت لى عاتق بالموصل» وأنها فسرت لى الآية «إلا من أتى الله بقلب سليم» والقلب السليم عندها هو الذى يلقى الله وليس فيه شىء غير الله ، ولما حدث أحمد بن أبى الحوارى شيخه الكبير أبا سليمان الدارانى بهذا – قال له «ليس هذا كلام الراهبة ، هذا كلام الأنبياء [٢] » .

٣ – التصوف المسيحى فى البلاد الإسلامية :

وانتشر الآن إلى المسرح المسيحى نفسه فى البلاد الإسلامية قبل الفتح الإسلامى وبعده . ماذا كان هناك من اتجاهات روحية .

كان الرهبان هنا وهناك بلا شك ، فى صوامعهم وبيعهم . كان هناك الأسانيون Les isseniens – أو العيسويون – أتباع المسيح الحقيقى . وقد تكلمنا عنهم من قبل . كانوا فى فلسطين وفى العراق . وكانت النساطرة بالذات تنتشر فى العراق ، مع أقلية من الملكانية ولم تفرض النساطرة العزوبة على رجال كهنوتها ، كما فعلت الملكانية ، وانتشرت الملكانية فى الشام مع أقلية من النساطرة ، وقد فرضت الملكانية العزوبة على رهبانها . أما فى مصر ، فقد انتشرت اليعاقبة مع أقلية من الملكانية ، وكانت اليعاقبة أيضاً تفرض العزوبة على رجال كهنوتها . وإلى الكوفة والبصرة أتى عدد من نصارى نجران ، وقد أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية ، حتى لا يكون فى الجزيرة دينان ، وقد حمل هؤلاء كثيراً من تراثهم المسيحى وطقوسهم . ولكن لا نسمع أبداً فى قلب المدينتين عن رهبنة أو كنائس . يبدو أن الرهبان كانوا موزعين فى بعض نقاط من الصحراء ، ويذكر بعض المؤرخين – كما قلت – إن بعض المسلمين كانوا يمرون بهم ويترددون عليهم . ويذهب جولد تسيهر إلى القول بأن أول

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٨ .

(٢) نفس المصدر : ج ٤ ص ١٦٤ .

مدرسة للزهد فى الإسلام إنما تكونت حين انتشر الإسلام فى الشام والعراق ومصر ، وخالط المسلمون المسيحيين وقد أفسحت هذه المخالطة للنفوس المتعطشة إلى الزهد هذا المجال الروحى . «إن التجارب التى تيسر لتلك النفوس اكتسابها بمخالطتهم المسيحيين أصبحت دون ريب مدرسة الزهد فى الإسلام ، ومنذ ذلك الوقت ظهرت هذه الميول النسكية فى وضوح وجلاء ، وبسطت نفوذها على آفاق أخذت تتسع شيئاً فشيئاً» ويرى جولد تسيهر مستنداً على أبحاث مرجليوث ، أن أصحاب هذه النزعة أكملوا هذا فيهم بما انتحلوه من شواهد وأدلة من العهد الجديد وأن أقدم مؤلفات فى الزهد تقتبس دائما من أسفار العهد الجديد . وأن هناك شواهد خفية تثبت هذا الانتحال . بل يذهب جولد تسيهر إلى أن الزهاد الأوائل نسبوا للرسول محمد ﷺ أحاديث تكاد تكون فقرات من العهد الجديد - ويعطى مثالاً لها حديث التوكل «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم ، كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً ، ولزالت بدعائكم الجبال» ويرى أن هذه الفقرات موجودة بعينها فى إنجيل متى - الإصحاح السادس أعداد : ٢٥ : ٣٤ ، وإنجيل لوقا إصحاح ١٢ أعداد ٢٢ ، ٣٠ وهى التى تتحدث عن طير السماء التى لا تبذر ولا تحصد ، ولا تكدس الحبوب فى الهواء ، ولكن يغذيها خالقها (١) والمقارنة مبتسرة بل تدل على حمق جولد تسيهر ومحاولته بكل الوسائل أن يسلب عن الإسلام كل جدة . إن فكرة التوكل فكرة إسلامية بحتة ، ثم إن رزق الله للطير معنى عام ، يستكشفه نبى - يتكلم مع الناس ، عمومهم وخصومهم ، ثم إذا افترضنا التوافق التام بين حديث النبى والفقرات الواردة فى إنجيل متى ولوقا ، فلا ضرر ولا ضرار . إن الاسلام يعلن أنه أتى قرآنا وحديثا ، مصدقا للتوراة والإنجيل . ولم يدع الإسلام أبدا أن التحريف وصل إلى أخلاقيات الإنجيل . إن الاسلام والمسيحية فى أخلاقياتهما إنما ينبعان عن مصدر واحد وأصل واحد .

٤ - نظرية نيكلسون :

وقد ذهب نيكلسون إلى نفس الرأى - بل قرر أنه قد ظهر بين الزهاد طائفة تعرف بالبكائين . ويرجح أن هذا الاسم قد أخذه المسلمون عن رهبان المسيحية (٢) . وهذا خطأ بالغ من نيكلسون . لم يعرف اسم البكائين بين الزهاد أو العباد الأوائل أبداً . عرف اسم الخائفين ، واسم العباد أما طائفة «التوابين» فقد عرفت فى الكوفة بعد استشهاد الحسين فى المدينة . فنشأتها شيعية بحتة ، وعرف اسم «البكائين» أيضاً فى المدينة بعد استشهاد الحسين على يد على بن الحسين ، زين العابدين . ولم يعرفه

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) نيكلسون : فى التصوف الإسلامى ص ٤٧ .

على زين العابدين ، عن طريق الزهد ، وإنما استنه بعد موت أبيه وإخوته وأهله أمام عينيه فى كربلاء . فلم يكن ناشئاً إذن عن تأثر بمسيحية أو رهبنة . حقًّا عرف البكاء لدى العباد فى البصرة والكوفة ، ولكنه كان مرتبطاً فيها وفى غيرهما فى البلاد الإسلامية بفكرة الخوف النابعة عن مشاهد العذاب القرآنية فى الآخرة .

ويرى نيكلسون أيضاً أن لباس الزهاد الأوائل – الصوف مأخوذ من الرهبان ، وقد بينت من قبل أن لباس الصوف لم يكن سمة العباد الأوائل وأنهم نهوا عنه نهياً كاملاً ، ثم يذكر أن عهود الصمت لدى هؤلاء العباد كان مسيحيًّا ولم نر فى عهود العبادة الأولى ولدى العباد الأول «عهود الصمت» هذه . وإذا وجدت لدى البعض ، فقد كانت مأخوذة من القرآن . وقد ذكر القرآن الصمت فى مواضع منه . ويرى نيكلسون أنه مما يدل على استناد الزهد الأول على المسيحية وتعاليمها وتقاليدها وجود آيات كثيرة من التوراة والإنجيل فى كتابات أولياء المسلمين الأوائل ، علاوة على أن القصص الإنجيلية التى كان يقصها رهبان المسيحية قد صادفت هوى فى قلوب المسلمين ، وقد نشر وهب بن منبه مجموعة من الإسرائيليات ، كما انتشرت قصص الأنبياء السابقين ويقرر أيضاً أن عباد المسلمين السائحين كانوا كثيراً ما يجتمعون فى صومعة راهب أو عموده ، يلقى عليهم مواعظه ، ويدلهم على طريق الخلاص [1] . أما أن الإنجيل قد عرف طريقه إلى المسلمين فى هذا الوقت ، وكذلك قصص الأنبياء المأخوذة عن العهدين القديم والجديد ، فهذا ما لا يمكن إنكاره . بل أخذ المسلمون بشرع من قبلنا إذا لم يكن فى شرعهم ما ينقضه . والدين واحد عند المسلمين ولكننا رأينا كيف كان كبار العباد ينكرون على مريديهم وأتباعهم التشبه بالنصارى والأخذ عنهم . أما تلك الصور الشعرية الفاتنة عن اجتماع الزهاد والعباد على راهب واستماعهم إليه يعظهم ، ويدخلهم إلى طريق التصفية ، أو اجتماع راهب ورهبان على زاهد أو عابد يستمعون إليه ، ويدلهم هو على طريق الخلاص ، ويبين لهم سمو الطريق المحمدى على غيره من الطرق . ويرتلون أغانيهم فيرتل لهم المثانى والقرآن العظيم . . . كل هذه الصور الشعرية الفاتنة إنما هى إلى خيال المؤرخين أوصل . . . فعلوا هذا فى سيرة الرسول . . . استمع إلى بحير واستمع بحيرا إليه . واستمع إلى ورقة بن نوفل ، واستمع ابن نوفل إليه وشهد الجميع بأن ناموسه أعظم من ناموس موسى وعيسى . أما بعد : إن طريق العباد والزهاد واحد ، وإن اختلفت المذاهب والفرق والنزعات والأديان ، هل هذا ما يقصده مؤرخو التصوف والعبادة والزهد من الأقدمين . وفى سبيل هذا افتعلوا تلك اللقاءات . وإذا كانت قد تمت ، فهل فى هذا ضير على الحياة الروحية الإسلامية ، إن الإسلام نفسه يقرر قراراً حاسماً أن دورته إنما أتت للعودة إلى الدين النقى ، دين إبراهيم وموسى وعيسى

(١) نيكلسون : فى التصوف الإسلامى ص ٤٧ .

وغيرهم من النبيين لا يفضل أحداً من رسله . ولم يفهم المستشرقون هذا أبداً ، وإنما دأبوا على تكرار أن الإسلام أخذ من اليهودية والمسيحية وأن فكره العقلى مأخوذ من تفكير المسيحيين واليهود ، وأن حياته الروحية مأخوذة من هذه وتلك ، وأن شريعته مزيج من قوانين اليهود والنصارى ، وأن أخلاقيته هى المسيحية معدلة . هؤلاء الحمقى من الباحثين كأنهم لم يقرءوا القرآن بحق ولم يتفحصوا الحديث بصدق ، والاثنان يعلنان أن الدين واحد ، وأن ما تعدد هو صور الأنبياء ، وأن الحقيقة واحدة ، متكررة على لسان موسى وعيسى ومحمد .

٥ - نظرية مارجريت سميث :

ولكن ما تلبث مارجريت سميث ، وهى إحدى الباحثات الممتازات فى حقل التصوف العظيم أن تحاول أن تلقى الضوء على الاتصالات الأولى بين المسلمين العباد وبين المسيحيين .

وقد قامت مارجريت سميث بدراسات عارمة عن التصوف المسيحى فى الشرق الأوسط - وتتبعت حركة الديرية والرهبنة فى صبر عجيب . وقدمت فى دراستها نماذج متعددة للزهاد المسيحيين الأوائل فى مصر وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى والشام وفلسطين والعراق وفارس ، كما قدمت نماذج عن الزاهدات والراهبات المسيحيات وحياتهن . ثم أعقبت هذا ببحث عن التصوف المسيحى فى الشرق الأوسط . وكان من أهم النماذج التى قدمتها : نموذج سانت كليمانت الإسكندرى وسانت باسيل العظيم والقديس أوغسطينوس والقديس أفرايم السورى وإسحاق النينوى ثم ديونوسيوس الأريوباجى المزعوم . . . وستكلم عن كثير من هذه الأسماء خلال عرضنا لمراحل الزهد ولمراحل التصوف ، وسنكتفى هنا بفحص صلة هؤلاء الزهاد من المسيحيين بالعباد الأوائل من المسلمين ، وإلى أى حد تذهب هذه الصلات .

وتحاول مارجريت سميث أن تثبت أن روح العبادة والتزهد فى الجاهلية والإسلام الأول ، إنما تمت إلى أصول مسيحية . وتقرر أن الأحناف كانوا مسيحيين ، وتضع مثالاً لهؤلاء - زيد بن عمرو بن نوفل : وقد بينت أنا من قبل تهافت فكرة مسيحية زيد بن نوفل . وتقول مارجريت سميث «إن ظهور الأحناف إنما كان جزءاً من حركة الزهد التى انتشرت فى الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى مستلهمة مثال الرهبان المسيحيين ، وقد كانوا منتشرين هناك . كما كان بين صحابة الرسول أبو ذر الغفارى وحذيفة ، وقد اشتهرا بترهدهما [١] » وتذكر مارجريت سميث أهل الصفة . ثم تذكر أيضاً أن فكرة العزوبة سمة الرهبنة المسيحية فى مصر والشام ، وقد رفضها الرسول رفضاً باتّاً ، قد وجدت صدى

---

(١) M. Smith: Studies in Early Mysticism P. 151.

لدى بعض المسلمين ، ولم تكن بخافية على المسلمين حتى فى عصر الرسول نفسه ، وقد أوردت عن الطبرى أن سعد بن خيثمة كان عزباً وأنه كان هناك عزاب بين الصحابة لجأوا إلى بيت ابن خيثمة ، وقد عرف هذا البيت باسم بيت العزاب . ونقرر أن ابن بطوطة قد رأى أطلالاً لمنزل بجوار المدينة – قيل إن عمر بن الخطاب بناه للعزاب من المسلمين (١) فالعزوبة الرهبانية لم تكن مستنكرة عند المسلمين فى رأى مارجريت سميث ، ثم تعطى م . سميث مثالاً عن الصمت المسيحى بامرأة أحمسية ذهبت للحج فى عهد أبى بكر – وقد فرضت على نفسها الصمت طوال حجها . ثم مثالاً آخر عن العزوبة وهو عامر ابن عبد قيس . ثم تجد مارجريت سميث فى أسفار وترتيلات القديس أفراييم مصدراً للزهد فى الدنيا عند المسلمين .

ورأت مارجريت سميث أن العباد الأولين كانوا يلبسون الملابس البيضاء تشبهاً برهبان المسيحيين . وقد كان إيفاجريوس يطلب من الرهبان لبس جلود الماعز – وقد كان طريق العباد الأولين فى عبادتهم – هو الخوف – لخلاص النفس . وهو هدفهم الأسمى . وقد تابعوا فى هذا وصايا القديس باسيل – وكانت آراؤه منتشرة فى الأديرة المسيحية قبل الفتح الإسلامى – وكان باسيل يرى نفس الشىء ، أن للحياة الزهدية غاية واحدة ، هى خلاص النفس . والطريق لخلاص النفس هو الوصية الإلهية الغالية – الخوف ، فلابد أن يقارن الخوف الطريق المؤدى إلى خلاص النفس . ذلك أن وصايا الله لها غاية واحدة هى أن ينجو بها من يعمل بها .

ثم اتخذت مارجريت سميث مثالاً لهؤلاء الخائفين المسلمين : الحسن البصرى . وحاولت أن تقارن بين أقواله وبين أقوال القديس باسيل . فتصيدت من أقوال الحسن من حلية الأولياء قوله «الرجاء والخوف مطيتا المؤمن (٢) » ثم استنتجت من أقواله أيضاً أن على المسلم «أن يغلب الخوف على الرجاء ، فإن الرجاء إذا غلب الخوف ، فسد القلب» وقد حاولت أن ترى شبهاً لهذا فى آراء القديس باسيل .

كان باسيل يرى أن الرياضة الروحية تكون أجدى – عند أولئك الذين دخلوا لتوهم حظيرة التقوى – إذا ما قامت على الخوف» ويذكر باسيل أن سليمان أحكم الحكماء قد قدم لنا هذه النصيحة فى (سفر الأمثال ١ : ٧) حين قال «إن مخافة الرب هى أول الحكمة (٣) » .

ومن العجب أن مارجريت سميث تركت أكثر أقوال الحسن البصرى – وهى منتشرة مبثوثة فى

---

(١) نفس المصدر ص ٥٤ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٥٦ .

(٣) Smith: Studies in Early Mysticism P. 151. .

وانظر أيضاً الأستاذ جريدباوم : حضارة الإسلام ص ١٦٢ – ١٦٣ .

وقد استند الأستاذ جريدباوم على أبحاث مارجريت سميث .

الكتب ، وهى تتصل كلها بالتراث الإسلامى البحت ، لتتصيد عبارة واحدة تقارن بينها وبين أقوال القديس باسيل . ولم نر فى تراث الرجل أبداً ما يدل على صلة بدين غير الإسلام . إن هناك بعض العبارات الغريبة فى تراثه – ولكن فى التحليل الباطنى لها هى إسلامية بحتة : ومن الأمثلة على هذه التعبيرات الغريبة «ابن آدم : السكين تجذ ، والكبش يعتلف والتنور يسجر» قد يبدو هذا التعبير غريباً على التراث الإسلامى فى عهده ، ولكن معانيه كلها إسلامية ، يضفى عليها مزاجه الفارسى غرابة فى التعبير . ثم ماذا هناك ، لو صادفت معانيه انطباقاً على معانى القديس المسيحى . إن الاثنين ينبعان من منبع واحد : النبوة الدينية والرسالة الإلهية سواء أكانت عن محمد أم عن عيسى . ونحن نلاحظ أيضاً أن هؤلاء الرهبان والقديسين كانوا غارقين ومستهلكين فى تصورات الرحمة والمغفرة ثم فى الفرض المسيحى الكبير «المحبة» فلماذا لم تنعكس وتظهر فى أقوال هؤلاء العباد ، وتتضح وضوح الخوف . ثم إن الرهبان والقديسين كانوا يعتزلون العالم ، ولم يفعل عباد المسلمين وزهادهم وصوفيتهم فيما بعد هذا ، فالخلاص عند عباد المسلمين لا يتم باعتزال الناس ، إن العابد المسلم يعتزل «الفتنة السياسية» وهى التى تمزق المسلمين ، ولكنه لا يعتزل الجماعة أبداً ، بل يعمل على صلاحها ، بإصلاح الفرد ، يعتكف ليلاً ، لكى يعقد الحلقات نهاراً يقص ويعظ .

وتمضى مارجريت سميث فى مقارناتها أو فى وضع نظرية الأثر والمؤثر والمتأثر فتقرر كما قلنا من قبل – إن ترتيلات القديس أفرايم أثرت فى المسلمين . وتعطى مثالاً لهذا ، الترتيل الآتى الذى كتبه هذا القديس : أيتها الدنيا . . . وأسفاه ، كم أنت محبوبة . . مفاتنك كثيرة . . . ولكنها ليست باقية . . . إنك لست إلا حلماً ، ولا وجود لك فى الحقيقة . لأجل هذا أيتها الدنيا الآفنة – . . . إنى لأهجرنك الويل لمن يحبك – أيتها الدنيا إنه سيقع فى شراكك ، وفى الشباك التى تنصبينها له إنه سيفقد نفسه ولن يتملكك ، إننى – لأهجرنك . . . أيتها الدنيا الآفنة . . إن قوة الله ورحمته إنما هى لهؤلاء الذين يرفضون هذه الدنيا ، ويمضون إلى الفناء ويتأملون دائماً فيما هو باق ، لأجل هذا – إننى لأهجرنك – أيتها الدنيا الفانية .

وترى أن البكاء المشهور فى الكنيسة السوريانية قد أثر فى البكائين المسلمين . وأن الحسن البصرى حين امتنع عن الضحك ، إنما تأثر أوكان ممثلاً للقديس باسيل ، وقد نهى أيضاً عن الضحك . وتقرر أن القديس باسيل فى مواعظه الطويلة كان يطلب الامتناع عن الضحك كقاعدة من قواعد الزهد .

ثم تضع ثلاثة أمثلة للبكائين : الأول عبد الواحد بن يزيد (المتوفى عام ٧٩٣ م) ومن تلامذة الحسن البصرى ومدرسته . وكان عبد الواحد بن زيد يقول – وهو يقص – «يا إخوتاه . ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل . إلا أنه من بكى شوقاً إلى سيده ، لم يحرمه النظر إليه،أيا إخوتاه ألا تبكون خوفاً

من النار . ألا إنه من بكى خوفاً من النار ، أعاذه الله منها . يا إخوتاه ألا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ، يا إخوتاه . ألا تبكون . بلى . فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا ، لعله يسقيكموه فى حظائر القدس ، مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً [١] » ثم يندفع فى البكاء .

والمثال الثانى : شعوانة ، العابدة الإبلية ، وهى تبكى بكاءاً ، شديداً ، حتى خاف عليها الناس العمى ، فلما كلموها فى هذا ، قالت : أعمى والله فى الدنيا من البكاء ، أحب إلىّ أن أعمى فى الآخرة من النار [٢] » وكانت تقول « من استطاع منكم أن يبكى فليبك ، وإلا فليرحم الباكى ، فإن الباكى إنما يبكى لمعرفته بما أتى إلى نفسه »[٣] .

والمثال الثالث : مثال أبى سليمان الدارانى : شيخ مدرسة الشام ، وستكلم عنه فى حينه ، حين نتفحص مدرسة الشام ، نشأتها وتطورها . وقد نقلت مارجريت سميث أيضاً نصًّا طويلاً له عن الرسالة للقشيرى يمجد فيه البكاء .

ورأت مارجريت سميث أن عباد المسلمين اتخذوا طريق البكاء عن رهبان المسيحية وزهادها الأوائل . وقد كان البكاء عندهم طريق التوبة . وأهم مثال لهؤلاء الزهاد هو أفراييم السورى . وإذا كان التنفس الطريق العادى الطبيعى للناس ، فقد كان البكاء الطريق الطبيعى العادى لأفراييم . فلم يكن يمضى نهار أو ليل أو ساعة أو لحظة مهما كانت قصيرة ، إلا وعينا القديس أفراييم مفتوحتين مملوءتين بالبكاء ، كان ينوح ويولول على خطاياه ، كما كان ينوح ويولول على خطايا البشر . وقد امتلأت كتاباته بدعوة إلى البكاء والنوح كرمز على التوبة . وكان يعلن أن مسئوليته الكاملة التامة فى هذه الحياة هى التوسل بكل جوارحه خلال نهنهات البكاء ، والدموع التى تجرى كالماء حتى تحصل على الخلاص . وأن قلبه سينفطر بالتأوهات ، حتى يحصل على العفو والمغفرة[٤]

وتقرر مارجريت سميث أن الزاهد كان يدعى فى الكنيسة السورية بالبكاء ، وأن إسحق النينوى كتب عن قيمة الدموع وأهميتها للزاهد « حين يبدأ السالك فى هجر لذات هذا العالم الجسدية ، وينتقل إلى هذه المجالى التى تكمن خارج هذه الطبيعة المنظورة ، إنه سيصل حينئذ إلى نعمة الدموع مستبدأ هذه الدموع وتقوده إلى حب الله الكامل . ويقول أيضاً « ما هو تأمل المتوحد فى صومعته . . . غير

---

(١) إبن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٣٦ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٣٠ .

(٤) M. Smith: Early Mysticism P. 151 - 153.

الدموع . . . ولا يعرف قيمة البكاء ، إلا من وهب نفسه لها . وإذا ما بكى إنسان على الدوام ، فلن تقرب مطالبه الحسية قلبه» وتقارن مارجريت سميث بينه وبين عبد الواحد بن زيد .

أما بعد : فإن دعوى مارجريت سميث ومجموعة المستشرقين دعوى عريضة جدًّا وينبغي أن تؤخذ بحذر . لقد اتصل بعض العباد بالرهبان ، وسنرى كيف كان عبد الواحد بن زيد نفسه يزور بعض الرهبان ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نقول : إن طريق المسلمين من العباد كان هو طريق الرهبنة ، وأن كل ما فعلوه هو أنهم أخذوا الحزن والبكاء عنهم . لقد نشأ الحزن والبكاء من الإسلام ومن حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية ، ثم اتفق الطريقان ، وأخذ جماعة من العباد يتصلون بالرهبان ، فوجدوا الطريقين واحداً ، والوسيلة واحدة . في جوهرها . وكان الفريقان يعلمان أنهما يصدران عن مشكاة واحدة ، هي مشكاة النبوة . ولكن بين الطريقتين بعد ذلك خلاف كبير . إن مجموعة العباد الكبار ثم مجموعة الصوفية الكبار – فيما بعد – تزوجوا وعرفوا متاع الزوجية ، بينما تزوج الرهبان والراهبات الله أو المسيح . وقد أقيمت محاولات متعددة لإثبات أن الحلاج هو مسيح المسلمين ، وبينما لم يتزوج مسيح النصارى تزوج مسيح المسلمين ، وأعقب ذرية عاشت بعده ، وأقيمت محاولات لإثبات أثر المسيحية النافذ في الغزالي ، وكان الغزالي مفكر الإسلام ، تزوج وأولد وكتب في الفقه وفي الأصول وفي الفلسفة وغيرها . . . وكان طريقه يختلف عن طريق الرهبان وصوفية المسيحيين . حقًّا إنه استمد من تراث المسيح ما يؤيد الجانب الأخلاقي في تصوفه . ولكن كما قلت من قبل مراراً – إن مفكري الإسلام لم ينكروا أبداً – طريق المسيحية الأخلاقي . كانوا على إيمان كامل بأنه هو طريق الإسلام الأخلاقي . وقد أنكر الغزالي الجانب اللاهوتي من المسيحية ، وناقشها بضراوة وعنف ، ولم يقبل المسيحية التي في أيامه كدين له نظام خاص فكري ، ولكنه قبل من التراث المسيحي الروحي ما يوافق صورة المسيح القرآني ، قد يختلف الأمر مع الحلاج – من قبله – قليلاً – لقد نادى الحلاج – كما سنرى – بالحلول الصوفي ، ولم يكن الحلاج في دعوى الحلول مسيحيًّا أول الأمر ، كان يصدر عن سياق خاص سنبينه حين نبحث آراءه ونظرياته ، ثم وجد في المسيحية ما يؤيد دعواه ، فنادى بعبارات مسيحية بلاشك . ولكن حين أخذته يد الجلاد ، وقطعت يداه ورجلاه ، ولم يعد من الموت مفر ، وتقدم «السياف» إليه ، وشعر الحلاج أنه في حضرة القدس ، نادى الله ، والخلائق تسمع ، بكلمة التوحيد الإسلامية . . .

الفصل الرابع

امتداد مدرسة الحسن البصرى

أصحاب الأكسية

ونعود إلى مدرسة الحسن البصرى ، مدرسة الروح فى البصرة ، لنرى كيف تتجدد آراء الحسن ، وكيف يصدر التلاميذ عنه ، بعمق ، وإتقان . . . وكيف تتطور العبادة أو الزهد إلى ملامح صوفية . لا أقول : إنها ملامح صوفية كاملة ، وإنما كانت المدرسة تقترب من وضع التصوف أو السير بالمسلمين فى طريقه :

كانت البصرة تعج بالأفكار الروحية التى قذف بها الحسن فى أعماقها وتمثلىٌ بالأشخاص الذين حملوا – عن الحسن – هذه الأفكار ، وكل يلونها بمزاجه الخاص . كان هناك القصاص (١) ، كما كان هناك معبرو الرؤيا والأحلام (٢) ، كما كان هناك القراء والوعاظ . ولكن كان هناك نوع من العباد ، غلبت عليهم العبادة الخالصة ، واعتبروا من رجال السند الصوفى . . .

١ – فرقد بن يعقوب السبخى : الزاهد الأرمنى المسلم :

كانت أفكار الحسن البصرى تتضح وتنمو لدى عابد من كبار عباد المسلمين هو فرقد بن يعقوب السبخى . وقد كان للعلامة العراقى الدكتور كامل الشيبى فضل تحقيق اسمه الحقيقى – السبخى لا السنجى ، كما كان له فضل تتبع هجرة فرقد من الكوفة إلى البصرة (٣) ولقد بلغ فرقد السبخى فى طريق الحياة الروحية مبلغاً يفوق أستاذه الكبير ، فقد لبس الصوف – كما رأينا ، واعتبره الحسن البصرى نفسه من أصحاب الأكسية ، بل اعتبره من « مجانين العباد » ودخل فى أعماق التصوف ، بحيث يقول عنه ياقوت إنه من أصحاب الرقائق (٤) » . وقد وصفه الذهبى فى طبقات المحدثين . وذكر

(١) من أهم القصاص فى هذا العصر – بكر بن عبد الله المزنى . وقد كان عربياً خالصاً . ويزيد بن أبان الرقاشى . وكان فارسياً .

(٢) من أهم معبرى الرؤيا وكان صديقاً للحسن البصرى . محمد بن سيرين .

(٣) الدكتور كامل مصطفى الشيبى الصلة ج ١ ص ٣٠١ – ٣٠٣ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء . ج ١٦ ص ٩٧ .

أنه أحد زهاد البصرة ، روى عن سعيد بن جبير ومرة الطيب وأنه من سبخة الكوفة لا من سبخة البصرة ، غير أن علماء نقد الرجال يجرحونه (١) ويذكر ابن الجوزى أنه أسند عن أنس بن مالك وسمع من كبار التابعين وشغله التعبد عن حفظ الحديث ولذلك يعرض النقلة عن حديثه (٢) .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن فرقداً كان حائكاً ومن نصارى أرمينية ولا نعرف الكثير عن سبب وصوله إلى الكوفة ، ولا عن أسرته . وانتقل فرقد إلى سبخة البصرة . ثم علم بمقام الحسن ، فذهب إليه . ويقص لنا الذهبى قصة دخوله على الحسن . فقد دخل فرقد عليه . فقال : السلام عليك يا أبا سعيد : فقال الحسن : من هذا؟ قالوا : فرقد قال : من فرقد؟ قالوا : إنسان يكون بالسبخة . قال : يا فرقد : ما تقول فيمن يأكل الخبيص . قال : لا أحبه ، ولا أحب من يحبه . ولا أتولاه . فقال الحسن : أترونه مجنوناً (٣) ،وقد صاحب فرقد الحسن ، وكان يخرج معه فى غدوه ورواحه ، وكان يلبس الصوف – كما قلت ، ويمتنع عن الطعام الفاخر . وكان الحسن البصرى يسخر منه ويداعبه .

وكان فرقد على علم بالتوراة والإنجيل ، يستعير منهما ، ويضمن أحاديثه الكثير من آياتهما . ولعل مرد هذا إلى مسيحيته الأولى،وقد وضع فرقد السبخى آراءه – إما فى صورة أحاديث إسرائيلية أو مسيحية . والسبب فى هذا انتشار القصاص فى ذلك العهد ، وتضمينهم للإسرائيليات فى قصصهم ومواعظهم ، واستخدامهم لهذه الإسرائيليات لتدعيم الأحاديث النبوية . ولكن الدكتور كامل الشيبى يرى أن فرقداً كان يتحرز عن التعبير الذاتى المباشر إما لخوف أو لشك فى قدرته على التعبير وأنه لذلك فضل التعبير غير المباشر ، فاستشهد لكل حالة أمضته بنص من النصوص المقدسة القديمة (٤) .

وكان أهم ما ألقى به فرقد السبخى فى المجتمع البصرى ، هى فكرة الجوع،والجوع كان سمة «للجوعية» فى الشام . فقد عرف العباد والزهاد فى أول أمرهم فى الشام بالجوعية . ولكن فرقداً السبخى يتكلم عن الجوع فى البصرة ، وقد رأينا كراهيته للطعام الجيد وإعلانه لهذه الكراهية فى حضرة أستاذه الحسن البصرى ، وامتناعه عن مشاركة أستاذه الطعام فى بعض الولائم التى دعى إليها الاثنان . كان يقول «قرأت فى التوراة : أمهات الخطايا ثلاث : أول ذنب عصى الله به : الكبر والحسد والحرص . فاستل من هؤلاء الثلاث ستا ، فصاروا تسعة : الشبع والنوم والراحة وحب المال ، وحب الجاه ، وحب الرياسة» وكان الناس يقولون الجوع كافر . ولكن فرقداً السبخى يصرخ الشبع أبو الكفر، ويرى أن «البطن» هو «أب الخطايا» «ويل لذى البطن من بطنه ، إن أضاعه ضعف ، وإن

(١) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٤٥ .
(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٤٦ .
(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٤٦ .
(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٤٥ .

أشبعه ثقل[١] » ولعلنا نرى من هذا أنه كان أوصل بالجوعية الشاميين من أهل البصرة . ولكننا نراه فى الوقت نفسه يخشى الخطايا والذنوب ، خشية « الخائفين » البصريين ، فيقول « ما انتبهت من نومى ، إلا خفت أن أكون قد مسخت » وهو هنا يستخدم فكرة « المسخ » وهى فكرة قرآنية ، تتصل بمسخ بنى إسرائيل قردة خاسئين . ثم نراه يكره الغنى ومجالسة الأغنياء ، وقد أعلن هذا من قبل أمام شيخه الحسن البصرى حين ذكر كراهيته للطعام الدسم – وينسب كراهيته للطعام لآية من التوراة « قرأت فى التوراة : من أصبح حزيناً على الدنيا ، أصبح ساخطاً على ربه ، ومن جالس غنيًّا ، فتضعضع له ، ذهب له ثلثا دينه ، ومن أصابته مصيبة ، فشكاها إلى الناس ، فكأنما يشكو ربه عز وجل » . وقد لاحظ الدكتور كامل الشيبى أن هذا النص روى عن النبى وعلى بن أبى طالب ، وعجب من أن يفعل فرقد السبخى هذا ، ولاحظ أن فرقدا السبخى لم يكن ذا صلة بالأحداث السياسية والحربية والعذاب الروحى الذى كان يستغرقان الكوفة ، فكان جل حديثه عن الآفات الاجتماعية فى البصرة[٢] » . ويبدو أن هذا لا يصور الواقع ؛ كان فرقد السبخى يغلف الأحاديث عن محمد ﷺ وعلى فى صورة آيات عن التوراة أو الإنجيل ، وكان يجتمع بعباد الكوفة ، يأتون إليه ، ويقضون معه أوقاتا طويلة[٣] وكان ينقد الحكام ، ويعرض مظالمهم فى صورة غير مباشرة . وها هو ذا يقول : « إن ملوك بنى إسرائيل كانوا يقتلون قراءهم على الدين ، وإن ملوككم يقتلونكم على الدنيا ، فدعوهم والدنيا[٤] » هذه دعوة متضمنة تعرض بهؤلاء الحكام من بنى أمية أو تطلب من الناس اتقاءهم . فكأن فرقداً كان يدعو – وكما فعل أستاذه الحسن البصرى – إلى نوع من التقية ، وقد أمضه مصرع أحد شيوخه سعيد بن جبير على يد الحجاج ، وألم له أشد الألم .

ولم يكن فرقد بن يعقوب السبخى بغافل عن دعوة الناس بل كان يعظ الجماميع – كما كان يفعل أستاذه ، فكان يقول – ويضع كلامه على لسان عيسى بن مريم « طوبى للناطق فى آذان قومه يسمعون كلامه ، وأنه ما تصدق رجل بصدقة أعظم أجراً عند الله تعالى ، من موعظة قوم يصيرون بها إلى الجنة » .

ودعا الناس إلى عصم أنفسهم عن الذنوب ، لماذا فعلوها ، لم يعودون إليها : ولكن الحياة أقوى منه بشرورها ونتنها . . . وتراوده الأحلام فيستيقظ ويقول « إنى رأيت والله فى المنام ، كأن منادياً ينادى

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٤٦ . وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٦ .

(٢) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٥٢ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٤٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٥ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ وابن الجوزى ج ٣ ص ١٩٦ .

من السماء : يا أشباه اليهود ، كونوا على حياء من الله عز وجل » ويراوده نفس الحلم مراراً ، وقد راعه أصحاب القصور يمرحون فى الدنيا ، وكأنها لهم باقية ولا شكر على النعمة ، ولا صبر عند الابتلاء « إنى رأيت فى المنام ، كأن منادياً ينادى من السماء : يا أصحاب القصور ، يا أصحاب القصور ، يا أشباه اليهود . إن أعطيتم لم تشكروا . وإن ابتليتم لم تصبروا ، ليس فيكم خير بعد العذاب » .

وأهمه تكالب الناس على فاخر الثياب ، ولعل هذا ما دعاه إلى لبس الصوف . فكان يدعوهم إلى نبذ الثمين منه ، إنهم لبسوا ثياب الفراغ ، ثياب الراحة قبل العمل . ولا بد من العمل — من السير والسلوك ، حتى يصل الإنسان إلى بهاء الثوب الإلهى . ويبدو أن فرقداً اختص بلبس الصوف ، فقد دعى هو وشيخه الحسن إلى طعام ، وكان على فرقد جبة صوف فقال له : يا فرقد : لو شهدت الموقف لحرقت ثيابك ، مما ترى من عفو الله ، وكأن الحسن — يعود هنا — إلى الإيمان « بالعفو » الإلهى والرحمة الإلهية ؛ وهو الذى طالما هدد الناس — لفاحش أعمالهم ونكسة أخلاقهم بالعذاب الإلهى . . . والنار المحرقة .

وأخيراً يردد فرقد السبخى هذا الشيخ الكبير ، الآتى من أعماق أرمينية إلى شيخه بالبصرة ، « الغريب ، من ليس له حبيب (١) » فهل كان هو حقًّا فى دار غربة ، غريباً عن وطنه . أم أراد أنه غريب فى هذه الدنيا ، وأن حبيبه هناك فى عالم آخر تشوق له . أم أنه لم يكن غريباً على الإطلاق ، لأن له حبيباً . . . هو ذات الله .

ومن العجب أن فرقداً السبخى حدث بأحاديث غير كثيرة ، ولكننا نرى أغلبها ، على لسان الأنبياء ، كأن الرجل قد شغل فعلاً بتراث ما قبل الإسلام ومن الأمثلة على هذا الحديثان الآتيان :

١ — قال رسول الله ﷺ : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لعبادى الصديقين ، لا يغتروا بى ، فإنى إن أقم عليهم قسطى — أو عدلى — أعذبهم غير ظالم لهم . وقل لعبادى المذنبين لا ييأسوا من رحمتى ، فإنى لا يكبر على ذنب أغفره لهم .

٢ — قال رسول الله ﷺ : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : ما بال عبادى يدخلون بيوتى — يعنى المساجد — بقلوب غير طاهرة ، وأيد غير نقية ، أبى يغترون ، أو إياى يخادعون . وعزتى وجلالى وعلوى فى ارتفاعى ، لأبتلينهم ببلية ، أترك الحليم فيهم حيران ، لا ينجو منهم إلا من دعا كدعاء الغريق .

ولكننا نرى الأحاديث الأخرى التى يرويها ، أحاديث إسلامية خالصة ، بعضها خاص بالعبادات

---

(١) أبو نعيم : ج ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٦ .

وبعضها خاص بالمغيبات الإسلامية (١) ، كان فرقد السبخى يمثل تراث عصره ، من ثقافة إسلامية ، وتدين إسلامى عبادى ، كما كان على صلة عميقة بالتراث الأجنبى – وهو المعروف بالإسرائيليات ، كل هذا بالإضافة إلى مزاجه غير العربى .

وقد احتل فرقد السبخى مكاناً فى السلاسل الصوفية . وقد ذكر الدكتور الشيبى أنه من « الغريب أن فرقداً صار من القلائل النادرين الذين اعتبروا عند المتصوفة من أصول التصوف ودخلوا سلاسله » (٢) . ويبدو أن فرقداً – قد وضع فى هذه السلاسل لأسباب متعددة . كان أقرب التلاميذ إلى الشيخ ، الحسن البصرى ، ويبدو أنه لازمه أكثر من غيره من تلامذته . ثم تميزه بلبس الصوف ، وإصراره على لبسه ، بالرغم من نهى الحسن له . يذكر ابن الجوزى أن فرقداً أتى الحسن ، فأخذ الحسن بكسائه ، فمده إليه وقال : يا فريقد ، يا ابن أم فريقد : إن البر ليس فى الكساء ، وإنما البر ما وقر فى الصدر وصدقه العمل . ويذكر ابن الجوزى أيضاً أن حماد بن سلمة قدم البصرة ، فجاءه فرقد وعليه ثياب صوف فقال له حماد : دع عنك نصرانيتك هذه (٣) إن هذا الإصرار على لبس الصوف – لا شك جعل الصوفية فيما بعد يضعون فرقداً فى سلاسلهم ، وبخاصة أنهم أتخذوا الصوف شعاراً .

لقد أدرك الصوفية – فيما بعد – العظمة الروحية لهذا الأرمنى الغريب . إنه هاجر من الكوفة – فى ظروف لم نعرفها بعد كما لا نعرف شيئاً عن حياته الأولى وعن أبيه يعقوب وعن أصله ومنشأه ، والتزم الشيخ الكبير . وكان الشيخ موزعاً بين الفقه والمعاملات والعبادات الصوفية ، وكان قاضياً وقارئاً وواعظاً ، ثم كان غارقاً فى الحياة العقلية الكلامية متردداً بين الجبر والاختيار . بل كان – فيما يقول الدكتور إحسان عباس بحق – « فيما دق من حقائق القدم امرءاً مغلوباً على أمره ظاهرى الفهم للمسائل الدقيقة » بل إن إحسان عباس – ينفى عن الحسن كل الأقوال المتعلقة بالرؤية أو الحب أو الرجاء مثل « لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم يوم القيامة لماتوا ، ومثل « الرجاء والخوف مطيتا المؤمن » ومثل المحب سكران لا يفيق إلا عند مشاهدة محبه » يرى الدكتور إحسان عباس أن كل هذه الأقوال قد نحلت للشيخ لكى يوضع فى مرتبة الإمام الصوفى وليأخذ مكانه فى السلسلة الصوفية (٤) ، هذا مع أنه كان ينكر على فرقد السبخى لبسه للصوف ، ويسخر منه .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٠٣ .

(٣) ابن الجوزى : تلبيس إبليس . ص ١٩٥ .

(٤) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصرى ص ١٢ – ١٣ .

كان فرقد السبخى يلبس «الصوف» غير آبه لكل نقد وبخاصة نقد أستاذه الحسن ، نائياً عن الفقه والمعاملات ، هاجراً للمأكل الهنى وللمشرب البارد ، مطأطىء الرأس للإرادة الإلهية وحدها مستهلكاً فى الله ، ممثلاً للبهاء الصوفى فى البصرة متسامياً فى حياة الروح عن شيخه الكبير المتعدد النواحى .

٢ – حبيب العجمى : الصوفى الفارسى : قطب الغوث :

أما الاسم الثانى الذى يظهر فى سلاسل الصوفية ، متصلاً بالشيخ الكبير الحسن البصرى ، وممثلاً أيضاً لجوهرة التصوف فى البصرة ، فهو حبيب العجمى أو حبيب الفارسى . وبينما كان فرقد السبخى جوهرة ثمينة مخفية فى سبخة البصرة ، ويقف من السيد الكبير موقف التلميذ أبداً ، سنرى حبيباً العجمى يقف من السيد الكبير ، موقف الأستاذ أبداً ، معلناً للبهاء الإلهى . وهو فى مقام القطبانية الكبرى ، مستجاب الدعوة ، محققاً لفكرة الغوثية التى شغلت الصوفية فيما بعد – سنوات طويلة .

أما اسمه الكامل فهو حبيب بن محمد العجمى أو الفارسى وكنيته أبو محمد (١) ولا نعرف بعد شيئاً عن أسرته أو عن نشأته الأولى ، سوى ما تذكره المصادر من نسبته إلى الفرس أو العجم وقد امتلأت أخباره بعباراته الفارسية ، وأنه من ساكنى البصرة أو أنه «بصرى من الزهاد» بل يذهب الذهبى مؤرخ الإسلام العظيم إلى أنه «حبيب العجمى زاهد البصرة فى زمانه»(٢) ثم تجمع المصادر أيضاً أنه كان من كبار تجار البصرة ، وسراتها . وتميز ابن عساكر برواية أنه كان «رجلاً تاجراً يغير الدراهم» أى أنه كان من صيارفة البصرة ، وكان يتهم «بأكل الربا» (٣) .

ولم يكن الرجل من القراء «أو من أهل العبادة» فكيف اتصل بالحسن البصرى . تذهب المصادر إلى أن الرجل كان يأتى إلى المسجد ويجلس مجلسه «الذى يأتيه فيه أهل الدنيا والتجار» بينما الحسن البصرى يتخذ مجلسه الوعظى فى المسجد . وكان حبيب الفارسى لا يأبه بالحلقة ، وغير منتبه إلى الحسن إلى أن حدث يوماً أن التفت إلى الحسن وسأل بعض أصدقائه بالفارسية : أين يبرهمى درايد دايد حكويد «أى ما يفعل هذا» فأجابه أصدقاؤه «والله : يا أبا محمد : يذكر الجنة ويرغب فيها ويزهد فى الدنيا» فوقر ذلك فى قلبه وقال بالفارسية أيضاً : اذهبوا بنا إليه . فأتاه . فقال أصدقاء الحسن له : يا أبا سعيد : هذا أبو محمد حبيب قد أقبل إليك فعظه» وسأل حبيب بالفارسية : أين همى كوى

---

(١) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٢٦ والجاحظ : البيان التبين ج ١ ص ٢٣٢ وأبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٤٩ .

(٢) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٤٥٧ .

(٣) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ .

جكوى . فقال الحسن – ولم يكن يعرف الفارسية – « إيش يقول ؟ فقالوا له « هذا الذى يقول : إيش يقول » فأقبل عليه الحسن بمواعظه الخلابة العميقة ، يذكر الجنة ونعيمها ويرغبه فى الخير ، ويخوفه بالنار ويزهده فى الشر – فقال حبيب : أين كوى : فقال الحسن : أنا ضامن لك على الله ذلك[١] .

ولكن ابن عساكر يقدم لنا رواية أخرى عن سبب إقباله على العبادة وتزهده : فيذكر أنه كان رجلاً تاجراً يغير الدراهم ، فمر ذات يوم بصبيان يلعبون ، فتصايح الأطفال « قد جاء آكل الربا » فنكس الرجل رأسه . وقال : يا رب أفشيت سرى إلى الصبيان . فرجع إلى منزله ، ولبس « مدرعة من صوف » وغل يده وجمع ماله ووضعه بين يديه . وجعل يقول « يا رب إنى أشترى نفسى منك بهذا المال ، فاعتقنى » وبات ليلته ، وفى الصباح تصدق بالمال كله ، وأخذ فى العبادة : فلم يرّ إلا صائماً أو قائماً أو ذاكراً أو مصلياً . وتمضى الرواية فتقول : إنه مر ذات يوم بنفس الصبية ، فقال : بعضهم لبعض « اسكتوا . لقد جاء حبيب العابد » فبكى وقال « يا رب أنت تحمد مرة ، وتذم مرة ، فكل من عندك[٢] » .

وسواء أصحت هذه الرواية أم تلك ، فإن الرجل تخلى عن دنياه وهجر الغنى والترف ، وأقبل على الحسن البصرى . ومنذ ذلك اليوم ، وقد أصبح الرجل فى مقام الخائفين بحيث يذكر صاحب الحلية « كان حبيب أبو محمد رقيقاً ، من أكثر الناس بكاء ، فبكى ذات ليلة » فقالت له زوجته عمرة بالفارسية ، وقد كانت هى فارسية أيضاً « لم تبكى يا أبا محمد » فقال لها حبيب بالفارسية « دعينى فإنى أريد أن أسلك طريقاً لم أسلكه من قبل[٣] » وصار ممول العباد ، ينفق عليهم ، كما ينفق على الناس ، بل يستقرض المال أحياناً لهذه الغاية . وقد امتلأت كتب طبقات الصوفية بأخبار إنفاقه على الفقراء والمعوذين والعباد . فأصبح « باب الحاجات » يأتى إليه الناس من كل فج ، وأخذ الرجل يعنى بالناس ويرى آلامهم . فيرى « بعض الجلاوزة » حين مر الأمير يطلبون من الناس أن يفسحوا الطريق ، فلم تستطع عجوز لا تقدر أن تمشى ، فضربها الشرطى بسوطه . فدعا عليه حبيب « اللهم اقطع يده » – فاتهم الشرطى بالسرقة بعد أيام – وقطعت يده[٤] وأصبح الرجل « مستجاب الدعوة » و « صاحب الكرامات » . وأقبل عليه المرضى ، فكان يقوم واقفاً – وهو فى مقام التذلل – ويعلق المصحف فى

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
وابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٠ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٣٦ .
(٢) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٠ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٥٤ .
(٤) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣١ .

عنقه ، ويخاطب الله «يا خدا حبيب رسوا مياش» أى يا إلهى : لا تسود وجه حبيب» ثم يدعو «اللهم عافه حتى ينصرف» وكان يشفى بالدعاء من البرص وينبت شعر الأطفال ويشترى للمنفقين المحسنين قصور الجنة (١) . . . فأصبح حبيب «غوث البصرة» . . . ومضى فى مقام التمكين الأخير ، اختراق حجب المكان والزمان «فكان يرى بالبصرة يوم التروية ، ويرى بعرفة عشية عرفة (٢) فأصبح حبيب «صاحب الخطوة» وهى التى ستكون فيما بعد سمة الأقطاب من الصوفية .

وعلا حبيب العجمى فى مقام الولاية حتى على أستاذه فى موقف تاريخى من أدق المواقف . فقد طلب الحجاج الحسن وأرسل فى أثره ، وهرب الحسن البصرى إلى بيت حبيب وقال له «يا أبا محمد . احفظنى ، الشرط على أثرى» فقال له حبيب «استحييت لك يا أبا سعيد . ليس بينك وبين ربك الثقة — ما تدعو فيسترك من هؤلاء ، ادخل البيت» فدخل الشرط على أثره وسألوا حبيباً «يا أبا محمد . دخل الحسن ههنا ؟ . فقال بيتى فادخلوا (٣) . ويردد الهجويرى الرواية على صورة أوسع إن الشرط عادوا إلى أبى محمد حبيب واتهموه بالكذب عليهم وخديعتهم ؛ فأقسم أنه ما ذكر لهم إلا حقًّا ، فعاودوا البحث عن الحسن ثلاث مرات ، فلم يجدوه ، فانصرفوا . وخرج الحسن — المرتاع الخائف المتردد — يقول لتلميذه الكبير «أنا أعلم أن الله سترنى ببركتك ، ولكن لم أخبرتهم أنى هنا . فقال له حبيب : إنهم لم يعموا عنك ببركتى ، ولكن ببركة الصدق (٤) وعاد الشرطة للحجاج فأخبروه بما حصل فقال : كان فى بيته ، والله طمس على عيونكم فلم تروه (٥) » . وكأن الحجاج إذن أيقن أن حبيباً قد وصل إلى مقام القطبانية المحمدية الكبرى . وسواء أكانت الرواية حقًّا أم من وضع الصوفية ، فإنها تضع الحسن فى مقام أدنى من مقام حبيب ، وترفع هذا الأخير إلى قمة الحياة الصوفية . وقد علق الدكتور إحسان عباس على هذا فقال «إن الحسن البصرى لجأ إلى حبيب لجوء الرجل الدنيوى إلى صاحب الحقيقة (٦) » .

ويبدو أن حبيباً قد عاش الفترة الأولى من عبادته فى مقام الخوف ، بحيث يذكر العابد البصرى

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٢ وابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٤ والذهبى : ميزان ج ١ ص ٤٥٧ .

وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٣٨ .

(٣) ابن عساكر : تهذيب . . ج ٤ ص ٣٠ .

(٤) الهجويرى : كشف المحجوب ص ٨٨ وكان لإحسان عباس فضل توجيه نظرى إلى هذا النص . انظر كتابه الحسن البصرى ص ١١ .

(٥) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٠ .

(٦) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصرى ص ١٢ .

أشعث الحدانى أنه انطلق إلى حبيب – وذلك عند ارتفاع النهار ، هو ومجموعة من أصحابه ، فخرج إليهم ، وأخذوا يبكون حتى حضر الظهر ، ثم صلوا وتذكروا الله ، فأخذوا فى البكاء ، حتى حضر العصر [١] . ولكنه ما يلبث فى طريق العبادة أن ينسى هذا . . . ويدخل فى مقام الأنس : فكان يخلو فى بيته ويقول «من لم تقر عينه بك ، فلا قرت ، ومن لم يأنس إليك ، فلا أنس [٢] » وكان يقول «لا قرة عين لمن لا تقر عينه بك ، ولا فرح لمن لا يفرح بك ، وعزتك إنك لتعلم أنى أحبك» ويقول : «الأواه الذى قلبه معلق بالله [٣] . . . وكان دعاؤه يحمل معانى المحبة فيصيح «سبحانك وحنانك . . . خلقت فسويت ، وقدرت فهديت ، وأعطيت فأغنيت وأقنيت وعافيت . . . أنت الكريم الأعلى ، وأنت جزيل العطاء ، وأنت أهل النعماء ، وأنت ولى الحسنات . . . وأنت خليل إبراهيم . . . سجد وجهى لوجهك الكريم [٤] . وكانت حياته قرآنية وكان يقول : افتح جونة المسك (ويعنى القرآن) وهات الترياق المجرب» يعنى الدعاء وبهذا كان يفتح الطريق للمحبة الإلهية عند الصوفية فيما بعد ، بل نجد فى عبادته زاداً علوياً لرابعة العدوية .

وكان يكره القراء ، ويعتبرهم لعبة الشيطان . ويطلب منهم ألا يقعدوا فارغين ، وأن يشغلوا أنفسهم بالموت [٥] .

وفى مقام الذلة والمسكنة ذهب إلى الله مقبوض اليد ، كما يقص لنا العابد المشهور عبد الواحد بن زيد ، فيخبرنا بأن حبيباً جزع عند الموت جزعاً شديدا – وكان يقول بالفارسية أريد أن أسافر سفراً ما سافرته قط . أريد أن أزور سيدى ومولاى ، وما رأيته قط . أريد أن أشرف على أهوال ما شاهدت مثلها قط . أريد أن أدخل تحت التراب ، فأبقى تحته إلى يوم القيامة . ثم أوقف بين يدى الله . فأخاف أن يقول لى يا حبيب : هات تسبيحة واحدة سبحتنى فى ستين سنة ، لم يظفر بك الشيطان فيها بشىء ، فماذا أقول . وليس لى . حيلة أقول : يا رب قد أتيتك مقبوض اليدين إلى عنقى» ويعلق على هذا العابد المشهور عبد الواحد بن زيد «هذا عبد الله ستين سنة مشتغلاً به ، ولم يشتغل من الدنيا بشىء قط ، فأى شىء حالنا . واغوثاه بالله [٦] بل إن الصوفية من بعده أجمعوا على أنهم لم يروا أحداً قط

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٣٩ وابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٤٣ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٥٤ وابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ ، ٣٣ .
ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٤٠ ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٠ .
وأبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٤ .

(٤) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٣ .

(٥) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٥١ .

أصدق يقيناً من حبيب العجمى ، بحيث يذكر عبد الله بن البنا – أحد عباد البصرة الكبار . « ما رأيت أعبد من الحسن ولا أروع من ابن سيرين ، ولا أزهد من مالك بن دينار . ولا أخشع لله تعالى من محمد بن واسع ولا أصدق يقيناً من حبيب [١] .

تلك نماذج من حياة حبيب العجمى . جعلته فيما بعد عموداً من أعمدة التصوف ، وأثر نموذج حياته فى العباد والزهاد والصوفية من بعده – اعتبره عبد الله بن البنا أصدق من رأى يقيناً ، وقال عبدالواحد بن زيد عنه « كان فى حبيب خصلتان من الأنبياء : النصيحة والرحمة [٢] وذكر عنه أبو جهير مسعود الضرير – من كبار عباد البصرة إنه لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، وطلب منه أن يسأل الله أن يخفى ذلك [٣] واعتبره أصحاب الحسن جميعاً زين مجلسهم فكانوا لا يذهبون لمكان أو زيارة بدونه [٤] وذكره أبو سليمان الدارانى كثيراً [٥] .

أما عن تمكنه فى رواية الحديث ، فمن العجب حقًّا أننا لا نجد طعناً عليه . فقد ذكره الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم فى كتابه الجرح والتعديل ، ولم يجرحه . بل ذكر أنه روى عن الحسن وأبى تميمة الهجيمى وروى عنه حماد بن سلمة وجعفر بن سليمان ويزيد بن يزيد الخثعمى [٦] بل إن الذهبى يبرئه من الكذب ويذكر أن البخارى روى له فى كتاب الأدب ويقول « وما علمت فيه جرحاً ، وإنما ذكرته هنا لئلاً يلحق بالزهاد الذين يهمون فى الحديث » وإن كان يقول فى موضع آخر « إن غالب ما عنده الحكايات » [٧] .

ويذكر ابن الجوزى عنه أن حبيباً سافر إلى الشام وقابل الفرزدق وروى له عن أبى هريرة « أما أنه إن طالت بك حياة ، ستلقى أقواماً يقولون لا توبة لك ، فلا تقطع رجاك من الله [٨] ، أما ابن عساكر فيرويه على الصورة الآتية : إنه سيأتيك قوم يؤيسوك من رحمة الله ، فلا تيأس [٩] ولكن ابن الجوزى يذكر أن الذى أسند عن الحسن وابن سيرين هو حبيب المعلم وأن حكاية الفرزدق هذه تنسب

---

(١) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٣٠ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٥١ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٦٩ ، ج ٤ ص ٩ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٣٧ وابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٣ .

(٦) أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم ، محمد بن إدريس المنذر التميمى الحنظلى (المتوفى فى عام ٣٢٧ هـ) الجرح والتعديل : القسم الثانى من المجلد الأول ص ١١٢ .

(٧) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٤٥٧ .

(٨) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٥٥ .

(٩) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ .

إليه . غير أن ابن عساكر يروى له عن شهرباز بن حوشب عن أبى ذر أنه قال : إن الله تبارك وتعالى يقول : يا جبريل : انسخ من قلب عبدى المؤمن الحلاوة التى كان يجدها ، فيصير العبد والهاً طالباً الذى كان يعهد من نفسه ، نزلت به مصيبته ، لم ينزل به مثلها قط . فإذا نظر الله تعالى إليه على تلك الحالة – قال يا جبريل : رد إلى قلب عبدى ما أخذت به ، فقد ابتليته ، فوجدته صادقاً ، وسأمده من قبلى بزيادة ، وإذا كان عبداً كذاباً ، لم يكترث ولم يبال [1] » .

* * *

لم تصب حياة الرجل إذن شائبة ، دخل باب العبادة ، ووصل أوجها ، ولم يشغل بفقه ، وحين حدث ، لم يهم – كما قال الذهبى – ناقد الرجال المشهور ، لم يهم ويبتدع كما كان يفعل الزهاد فيما بعد ، يضعون الحديث لتبرير زهدهم .

أما أن الصوفية قد وضعوه فى سلاسلهم ، ولم يضعوا – غيره من تلامذة الحسن ، اللهم إلا فرقداً السبخى – فلأسباب متعددة – إنه لبس الصوف ، كما رأينا «لبس مدرعة من شعر» و«غل يده» فكان يمثل الصوفية – فيما بعد – فى لباسهم ، وفى موقفهم المستسلم الجبرى تحت مشيئة الله المطلقة ، وأمره النافذ . . . فكان «مغلول اليد» وكذلك ذهب إلى الله ، وأعلن ساعة موته ، أنه ذاهب إليه هكذا ، «أسير الله» حيث الفكاك ، بيد الله بيد القدرة الإلهية . وأعلن حبيب مذهبه الجبرى – يارب أنت تحمد مرة وتذم مرة ، فكل من عندك» موقف الجبر المطلق ، بينما كان أستاذه يتردد بين الجبر والاختيار – بين خصوم القدر وبين أصحابه . وأخيراً . . . كان الحسن البصرى خائفاً ، حين أتى إليه يوم هربه من شرطة الحجاج ، وكان هو ثابتاً كالطود فى مقام «الصدق» وفى مقام اليقين ، متمكناً ، معلناً للوجود . . . أنه الأشعث الأغبر ، فى أطماره الصوفية ، لو سأل الله لأبره ، ولقد سأل . . . وأجاب الله ، سمع الله وبصره ويده . . . لا عجب بعد ذلك أن وضعه الصوفية فى سلاسلهم – بعد الشيخ – رابطين بينه وبين معروف الكرخى ، الذى سيكون هو أيضاً بعد فى بغداد – باب الحوائج ، أو قطب الغوث ، وكما حجب حبيب العجمى ، بالحسن البصرى ، فكان هذا الأخير ، الشيخ ، وذاك . . . التلميذ ، كان معروف الكرخى تلميذاً لعلى الرضا وكان الإمام على الرضا يحجب معروفاً . كان الحسن البصرى والإمام على الرضا فى نظر التصوف الحقيقى الشيخين الظاهرين ، أهل الصلاح ، أهل العبادة ، أهل التقوى ، بينما كان حبيب العجمى ومعروف الكرخى . . . الإمامان الباطنيان ، أهل التصوف ، أصحاب الجوهرة الخفية ، الحقيقة . . . المطلب العسير لكل سالك .

---

(١) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ .

٣ – شهر بن حوشب وعمرة زوجة حبيب :

وقد ظهرت فى حياة حبيب العجمى شخصيتان هامتان أحدهما زوجته عمرة والأخرى شهر بن حوشب .

وكما ارتبطت بصلة بن أشيم زوجه معاذة العدوية ، ارتبطت بحبيب العجمى زوجه عمرة الفارسية . كانت تظهر فى أكثر مواقف حياته . عاشت معه عيشة الثروة والترف ، فلما دخل الرجل طريق العبادة ، تعبدت أيضاً ، غير شاكية ولا متبرمة ، تقوم بنفسها على خدمة العباد من أصحابه ، فإذا جن الليل ، تعبدت معه . . . وإذا بالروح العبادى ينبثق فيها على صورة لم تعرفها البصرة فى مثيلاتها من الزاهدات .

كانت تقوم الليالى المظلمات كلها ، تقوم ، وحبيب أحياناً نائم ، فتقول برفق وقت السحر عاتبة : قم يا رجل . قد ذهب الليل ، وجاء النهار ، وانفض كوكب الملأ الأعلى ، ومارت قوافل الصالحين ، وأنت متأخر لا تدركهم ، وأحياناً تردد له « قوافل الصالحين قد سارت قدامنا ، ونحن بقينا » وكانت عمرة تنسى أوصاب جسدها ، متجهة إلى الله ، منكفئة ، على نبضات القلب . وكان الوجع يصيب عينيها فلا تشتكى ، ويسألها الناس . كيف تجدينك . فكانت تقول « وجع قلبى أشد من وجع عينى [1] » .

أما الشخصية الثانية : فهى شخصية : شهر بن حوشب ، (المتوفى عام ١١١ هـ) أحد قراء حمص النساك – فيما يقول الذهبى ، وقد روى حبيب عنه ، وقيل إن حبيباً سافر إلى الشام وقابله هناك . وكان شهر بن حوشب – فيما يبدو تلميذاً لأبى ذر الغفارى ، كما روى عن بلال ، وعن تلك الشخصية الغامضة التى لم تدرس بعد وهى شخصية تميم الدارى . وقد عاش شهر بن حوشب بحمص ، ولكن يقال : إنه وفد على العراق وحدث به [2] . وأيا ما كان الأمر ، فإن صلات شهر بن حوشب بأبى ذر ، أثرت فى أعماق حبيب . ولعل خروجه عن ماله وإنفاقه على المسلمين إنما كان صدى لدعوة أبى ذر التى وصلته عن طريق شهر بن حوشب ، على أن آثار ابن حوشب إنما ينبغى أن تلتمس فى مدرسة الشام ، حيث عاش وحدث وتعبد .

---

(١) الشعرانى : طبقات ج ١ ص ٥٧ ، وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٣ .

(٢) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٨٣ ، ٤٨٤ .

وأبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٦٣ .

الفصل الخامس

الزهاد الوعاظ : الوعظ العبادى أو الصوفى فى البصرة

كانت تعاليم الشيخ الكبير الحسن البصرى تنمو وتتضخم بين الكثير من تلامذته ، بقدر ما كان ينمو الفساد وتعظم الخطيئة ويزداد الغنى الحرام فى البصرة ، وكان هؤلاء التلاميذ يجأرون بأصواتهم فى حلقات المساجد ، وفى الطرقات وفى الجبانات ، كان هؤلاء من القراء بلا شك ، ولكن تميزوا بالوعظ العبادى ، وخلال هذا الوعظ ، بدأت تتضح أيضاً معالم صوفية ، أو خطرات تدخل فى صميم التصوف . أو بمعنى أدق إن معالم التصوف الساذج الذى اتضح بلا شك فى شيخ « الصالحين » الحسن البصرى ، بدأ يتعمق لدى تلامذته العباد ، فقرب بينهم ومن تلاهم من صوفية . وقد تنبه الصوفية فيما بعد – إلى سمو الروح العبادية لدى تلميذين من تلامذة الرجل الكبير عن الرجل الكبير نفسه ، وهذان التلميذان هما مالك بن دينار ومحمد بن واسع ، ثم مجموعة أخرى من التلاميذ – صالح المرى وثابت البنانى ، وسنبر الدستوائى ، ثم تلميذ متأخر – هو عبد الواحد بن زيد . وعدد آخر من التلاميذ ، انتشروا جميعاً فى البصرة . . . وكتبوا – فى حياة الروح لدى المسلمين أجمل الصفحات .

كانت النظرية العامة التى تشمل هؤلاء التلاميذ جميعاً : الحزن . . . البكاء . الحزن على أوصاب الدنيا وأوضارها ، وقصرها ، والبكاء على الذنوب والمعاصى والخطايا التى غرق فيها مجتمعهم البصرى ، خرجوا ينذرون الناس . . . وفى خلال نذرهم ظفرت « الروح » منهم بلمحات فاتنة ، وصور رائعة . وكان كل يصدر عن فكرة واحدة ، مع تباين الأمزجة ، وإن كان يعمهم فى الأغلب الطراز الفارسى العميق ، دقته فى التصوير ، وبراعته فى التعبير ، ولكن الروح كانت إسلامية بحتة . ولهذا لابد أن نعرض لنماذج من هذه النظرية مجسدة فى أشخاص ، ليتبين لنا « أغانى الروح » التى أنشدوها .

١ – مالك بن دينار :

أما أول هؤلاء التلاميذ . . . فهو أبو يحيى مالك بن دينار (المتوفى سنة ١٣١ هـ – ٧٤٨ –

٧٤٩ م) . وكان مالك بن دينار من الموالى ، مولى لامرأة من بنى سلمة . ويبدو أنه أعد منذ طفولته ليكون قارئاً ، ثم دخل فى القصص ثم الوعظ . ولم يتكسب بعمل سوى أنه كان يكتب المصاحف ويبيعها لكى تسد رمقه . وقد أقبل على الحسن البصرى ، وفنى بين يديه ، وكان يمثل فى كثير من نواحيه شيخه الكبير ، ويتابع سنته ، كما كان يمثل ثقافة عصره كلها من معرفة بالإسرائيليات وتضمينها مواعظه .

أما أنه كان يصرخ فى المجتمع البصرى ، وينذره خطاياه فقط ولا يأبه بحكام بنى أمية ، فهذا خطأ . لقد حاول أن يخرج – على الأمرين – فى ثورة ابن الأشعث . وها هو يقبل ثلاثة أيام متتالية على الشيخ يسأله : يا أبا سعيد ما تأمرنى ؟ فلا يجيب الشيخ . وينفد صبر مالك فيقول له : «أتيتك ثلاثة أسألك . وأنت معلمى فلا تجيبنى ، والله لقد هممت أن آخذ الأرض بقدمى ، وأشرب من أفواه الأنهار ، وآكل من بقل البرية ، حتى يحكم الله بين عباده» . واهتز الشيخ لتلميذه فبكى . ثم قال «يا مالك ومن يطيق ما تطيق ، لكنا والله ما نطيق هذا[1] » وكان الشيخ يريد أن يجنب تلامذته هذه الفتنة ، ويعلم ما يختلج فى نفوسهم من آلام ، ولكنه كان يؤمن بأنها ستزيد النار ضراماً فى البصرة ؛ ولن يجنى الناس غير أشواكها . وقد مضى شيخ مالك بن دينار الآخر مع ابن الأشعث ، وهو سعيد بن جبير وذبحه الحجاج فى مشهد مثير . وسيبكى مالك بعد . . . سعيد بن جبير . هذا الذى كان كلامه دواء للخاطئين [2] . استطاع الشيخ إذن أن يروض تلميذه على اتقاء الفتن ، وعلى الصبر على نوازع النفس . وأن يتجنب الفتن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ونراه – يتابع سنة الشيخ فى اتقاء الحكام ، ويدخل عليهم ويعظهم ، ويقبل هداياهم ، ثم يفرقها على الفقراء ، ويعتق بها الرقيق . وسيعاتبه صديقه محمد بن واسع الذى تحرج كلية عن الدخول على أمراء البصرة ، إنه يسأله بعنف : مالك قبلت جوائز السلطان ، فأجابه مالك : سل جلسائى . فقالوا : يا أبا بكر اشترى بها رقاباً أعتقهم . فقال له محمد بن واسع : أنشدك الله – أقلبك الساعة له ، على ما كان قبل أن يجزيك ؟ قال : اللهم لا . قال : ترى أى شىء دخل عليك ؟ فقال مالك لجلسائه : إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع [3] . كان مالك يتواضع أمام أصدقائه وتلامذته ، ويفضل صديقه على نفسه ولكنه كان يرى لزاماً عليه – بعد وفاة شيخه أن يدخل على أمراء البصرة يخوفهم النار ويعظهم ، كما كان يدخل على أصحاب العشور والخراج ، لكى يكف أذاهم عن الناس . . . وهذا طريق العابدين من المسلمين .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) ابن الجوزى : صفة . . ج ٣ ص ١٩٢ .

ولقد شغل مالك بن دينار بالقرآن ثم قام بحملة من القراء ، وقد آله تكالبهم على الدنيا ، فكان يدعوهم إلى ذكر الله «ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله تعالى (١) » ويصرخ فيهم الصرخة تلو الصرخة «يا حملة القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ، فإن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض ، فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض ، فيصيب الحش ، فتكون فيه الحبة ، فلا يمنعها تين موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن . . . فيا حملة القرآن ماذا زرع الله فى قلوبكم (٢) وكان يخشى عليهم الدنيا ، ودعاها بالسحارة . . . فكان يردد . . . اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء وكان يعاتب صديقه العابد ثابت البنانى لأنه كان يرخص لهم فيقول له أنا أبطهم ، فأخرج القبح والدم وأنت تدهنهم بالكذا – أى تحدثهم بالرخص . وأنا أشدد عليهم (٣) .

وبعد : فهل خرج وعظ مالك بن دينار وصرخاته فى البصرة إلى حدود التصوف ، وأى أثر له فيمن بعده – أم كان مجرد رجل من الصالحين ، متابعاً حياة أستاذه ومثاله . . .

(ا) لقد شغل الرجل بالقرآن شغلاً تاماً . كان يكتبه وينطق به ولكن عبارة من عباراته عن القرآن تستوقف النظر «إن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن ، طربت قلوبهم إلى الآخرة» ثم يقول لمريديه – خذوا – . . . فيقرأ – ويقول «اسمعوا لقول الصادق من فوق عرشه» (٤) . وبدون أن نحمل النصوص أكثر مما تحمل ، هل نستطيع أن نرى فى كلامه – أصلاً – لفرقة السالمية البصرية التى ستنشأ بعد ذلك بمدة ، مقررة أن الله – هو القارئ على كل لسان . وبخاصة أن مالك بن دينار يكثر من التكلم عن الصديقين ويورد من الكتب السماوية الأخرى سماتهم وأوصافهم .

(ب) الذكر – نادى بالذكر كما رأينا . والنصوص كثيرة فى هذا – وهو يضعها على لسان آية من التوراة «قرأت فى التوراة : أيها الصديقون : تنعموا بذكر الله فى الدنيا ، فإنه لكم فى الدنيا نعيم ، وفى الآخرة جزاء عظيم» . . . وعن داود أيضاً « . . . عين الله إلى الصديقين وهو يسمع لهم . «وسبحوا الله أيها الصديقون بأصوات حزينة . بل إنه يرى أن الله يقترب من القلب ، ويتحدث عن نور الله . . . «قرأت فى التوراة يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى فى صلاتك باكياً ، فإنى أنا الذى اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نورى «ويعلق مالك – تلك الرقة وتلك الفتوح الذى يفتح الله لك منه» ويقرر أن أهون ما يصنعه الله بالعالم ، إذ أحب الدنيا أن يخرج من قلبه حلاوة ذكره (٥) .

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ١٩٧ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٥٨ ، ١٥٩ ابن الجوزى صفة ج ٣ ص ١٩٧ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٦٤ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣٥٨ وابن الجوزى صفة ص ٢٠٧ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(جـ) لبس الصوف : كان مالك بن دينار من أزهد الناس فى الملبس . ولكن هل لبس هو الصوف – إنه يدعو إليه ؛ ويطلب من القراء لبسه « . . . يا قارئ . . . أنت قارىء – ينبغى للقارىء أن يكون عنده دارعة صوف وعصا راع – يفر من الله إلى الله عز وجل ويحوش العباد على الله تعالى » بل إنه عوتب لإغلاظه على الناس فى ملابسهم . . . فكان يقول « اكسبوا الحلال ، والبسوا ما شئتم . . . » ثم يقول متأسفاً « زمرنا لكم ، فلم ترقصوا ، أى وعظناكم فلم تتعظوا (١) » . . . غير أن أبا نعيم يذكر أنه كان يلبس إزار صوف وعباءة خفيفة . . . ويدعونا هذا إلى البحث عن صلته برهبان المسيحية . إننا نلاحظ أن الرجل أكثر من الاستشهاد بالتوراة فيذكر أنه قرأ فيها كذا وكذا من الأحاديث . كما أنه يورد أيضاً أقوالاً لموسى ولداود وللمسيح عليهم السلام . وكانت كلها بلا استثناء تدور حول « الذكر » والزهد فى الدنيا والخوف من النار . غير أنه تميز بذكر قصص الخاطئين من اليهود ، وكان يريد أن ينذر الخاطئين ، فى البصرة ، أن خطاياهم محمولة على أعناقهم . . . فلم يجد وسيلة من القرآن ومن الكتب السابقة ومن « الحكمة » كما كان يدعوها ، إلا واستخدمها لإنذار الناس وتذكيرهم . ولا شك أن مالك بن دينار درس الإسرائيليات المشهورة التى انتشرت فى عصره ، كما درس التوراة . وليس هناك إشارة إلى دراسته للأناجيل مباشرة . غير أن نصًّا هامًّا حفظه لنا أبو نعيم يثبت تماماً أن الرجل قرأ بعض كتب الزهد المسيحية . فقد كان مالك بن دينار يتردد على الأديرة . وهو يقول نفسه « كنت مولعاً بالكتب ، أنظر فيها ، فدخلت ديراً من الأديرة ليالى الحجيج ، فأخرجوا كتاباً من كتبهم فنظرت فيه . فإذا فيه : يا ابن آدم لم تطلب علم ما لم تعلم ، وأنت لا تعمل بما تعلم (٢) ولا شك أن هذه الكتب كانت من كتب الزهد المنتشرة فى أديرة الرهبان ، ونحن نعلم أن القديسين أفراييم وباسيل تركا كتباً كثيرة احتفظ بها فى هذه الأديرة ، فهل ترجم بعضها إلى العربية أو الفارسية . . . ويذكر مالك نفسه مرة أخرى بها قابل راهباً على جبل من الجبال فناداه قائلاً : يا راهب أفدنى شيئاً فما تزهدنى به فى الدنيا ، فقال : أولست صاحب قرآن وفرقان . قلت : بلى ! ولكنى أحب أن تفيدنى من عندك شيئاً أزهد به فى الدنيا . فقال إن استطعت أن تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد : فافعل (٣) ويبدو أن مالكاً قد أعجبه بساطة حياتهم ولبسهم للمسوح بحيث يقول « يا هؤلاء – جهالكم كثير ، لولا ذلك للبست المسوح » ومرة ثانية يذكر « لولا أن يقول الناس جن مالك ، للبست المسوح ووضعت الرماد على رأسى ، أنادى فى الناس ، من رآنى فلا يعصى ربه عز

---

(١) أبو نعيم الحلية ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٨٥ ، ٣٥٨ .

(٢) أبو نعيم حلية : ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٣) نفس المصدر السابق : ج ٢ ص ٣٦٥ .

وجل» ومرة ثالثة «لولا سفائكم ، للبست لباساً ، لا يرانى محزون إلا بكى»[١] ونحن نتساءل هل يقصد بالمسوح هنا ملابس الرهبان «أو أنه يقصد مرقعة من الثياب» ، سواء هذا أم ذاك فقد كان للرهبان وللكتب المسيحية الزاهدة أثر عليه لا ينكر فى الناحية الأخلاقية السلوكية ، ولكنه أبى أن يتشبه بالرهبان فى لبس المسوح مراعاة للشعور الجمعى ، واقتداء بسنة الحسن ، وكان الحسن – كما قلنا ينهى عن لبس الصوف . ولا عجب من أن يفعل مالك بن دينار هذا ، بل إنه يطلب عدم التشبه بلباس الأعداء .

«أوحى الله إلى نبى من الأنبياء : أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائى ولا تطعموا مطاعم أعدائى ولا تلبسوا ملابس أعدائى ، ولا تركبوا مراكب أعدائى ، فتكونوا أعدائى ، كما هم أعدائى»[٢] غير أنه كان للرهبنة المسيحية أثر آخر عليه . فقد كان يتمنى النوم على المزابل مع الكلاب ، وينقل عن عيسى «بحق أقول لكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل فى طلب الفردوس» بل كان يدعو إلى هجر الزواج . . . والنوم مع الكلاب «لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين ، حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوى إلى مزابل الكلاب» وتعرض عليه امرأة من غنيات البصرة وجميلاتها الزواج وكانت قد رفضت بنى هاشم والعرب والموالى – فسألها أبوها . . . أراك تريدين مالك بن دينار وأصحابه : فقالت «هو والله غايتى» .

ويبعث إليه والدها بأحد أصدقائه يعرض عليه ابنته . فيقول للرجل «عجباً لك يا فلان ، – أما تعلم أنى قد طلقت الدنيا ثلاثاً» وهو هنا يردد قول الإمام على – ثم يسأل مالك بن دينار «ألا تتزوج ؟ فقال : لو استطعت لطلقت نفسى» ويبدو من هذا أن الرجل قد نأى عن الزواج فعلاً ، وكان يقول «عرس المتقين – يوم القيامة»[٣] .

وهذا يدل على أن الرجل لم يتزوج قط ، ولكن صاحب الحلية يذكر عنه أنه قال «اشتريت لأهلى ظبياً بدرهم ، وأنى لأحاسب نفسى فيه منذ عشرين سنة ، فما أجد لى مخرجاً»[٤] فهل كان يقصد بأهله زوجه . إن الصوفية فيما بعد لم يذكروا عنه أنه لم يتزوج ، علاوة على أنه كان ينهى القراء – عن زواج – ديباجة الحرم ، وهو اصطلاح بصرى يعنى – أجمل الناس ، ويحضهم على زواج اليتيمات الفقيرات . ومهما كان الأمر – فى صلاته بالرهبان – فقد اتصل مالك بن دينار بهم فعلاً ورأى اتفاق

---

(١) نفس المصدر السابق : ج ٢ ص ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٧١ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٣٦٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٧٩ .

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ٣٦٩ .

الطريقين – طريق العباد المسلمين – وطريق الرهبان – وكان بيته نفسه ديراً أو يشبه ديراً لا أثاث فيه ، وقيل إن حريقاً وقع فى بيت مالك ، فأخذ المصحف وأخذ القطيفة – وقد كانا كل ما فى البيت ، فأخرجها – فقيل له : يا أبا يحيى : البيت . فقال : ما فيه إلا السندانة ، ما أبالى أن يحترق .. وهلك أصحاب الأثقال وكان البيت مظلماً طوال الليل ، ولم يكن يشعل فيه سراجاً [١] . بينما كانت الأديرة تضاء وتشعل فيها النيران . وكان يعلن أن كل ما يحمله إلى بيته من متاع وطعام ، فهو حل للناس ، وكان يقول «أنا لا أحتاج إلى قفل أو مفتاح» .

(د) المعرفة : كانت هناك عوامل إذن متعددة جعلت مالك بن دينار أثيراً لدى الصوفية من بعده ، ثم آثره الصوفية على شيخه حين تكون التصوف كعلم إرادة النفس ، أو كعلم إرادة القلوب . وقد خاض فى دقائق القلب . حقًّا إن ما وصلنا عنه ليس بالكثير ، ولكنه يحتوى لمحات نفاذة ، أثرت فى الصوفية وتناقلوها . . . ومن الأمثلة على هذا أقواله «يقولون : الجهاد : أنا سن نفسى فى جهاد» وسيضع الصوفية أقوالاً يقررون فيها أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، وسينسبونها كأحاديث صدرت عن النبى نفسه : كما أنه يتكلم عن حزن القلب : «إذا لم يكن فى القلب حزن خرب ، كما إذا لم يكن فى البيت ساكن يخرب» بل إنه يذكر القلب المحب «إن القلب المحب لله يحب النصب لله عز وجل . ويرى أيضاً أن القلب إذا علقه حب الدنيا ، لم تنجع فيه الموعظة ، ويطلب تعاهد القلب من الذنوب . وينقل عن عيسى بن مريم عليه السلام «أجيعوا أنفسكم وأطيعوها ، وأعروها وأنصبوها ، لعل قلوبكم أن تعرف الله عز وجل» بل دعا إلى زرع الصدق فى القلب «ويبدو فى القلب ضعيفاً ، فيتعهده صاحبه ، ويزيد الله تعالى ويتفقده صاحبه حتى يجعله الله بركة على نفسه ، ويكون كلامه دواء للخاطئين» . وأخيراً – يبحث عن جوهرة العبادة فى المؤمن فيقول «مثل المؤمن مثل اللؤلؤة ، أينما كانت حسنها معها»[٢] ثم كان مالك بن دينار أول من تكلم عن معرفة الله «خرج أهل الدنيا من الدنيا ، ولم يذوقوا أطيب شىء فيها . قالوا – وما هو يا أبا يحيى قال : معرفة الله تعالى[٣] » . وبهذا كان مالك ابن دينار أول من نبه إلى حقيقة المعرفة ، وستلعب دورها الكبير عند الصوفية من بعده .

* * *

وزهد مالك بن دينار الناس ، فلجأ إلى مصاحبة الكلاب ، فكانت تتبعه ، وكان يجالسها وكان

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية . . ج ٢ ص ٣٥٩ – ٣٦٠ – ٣٦٣ ٣٦٤ – ٣٧٠ – ٣٧٧ .

(٣) نفس المصدر : ج ٢ ص ٣٨٤ وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ٢٠٤ .

يقول «هذا خير من جليس السوء . هذا لا يؤذيني» . وعاف الناس جميعاً ، ولجأ إلى المقابر . . . ويخاطب أهلها «نحن رهائن الأموات ، وهم محتسبون حتى ترد إليهم الرهائن» . ثم يعلن تمنيه ، لولا خوفه من أن يحدث حدثاً في الإسلام ، أن يأمر إذا مات ، أن يغل ، وأن يدفع إلى الله مغلولاً كالعبد الآبق[١] .

وبعد : فإن هذا الكاتب للقرآن ، هذا العابد الكبير ، كان يذهب هو وثابت البناني ويزيد الرقاشي وزياد النميري ومجموعة من عباد الكوفة إلى أنس بن مالك – الصحابي العظيم ، وخادم رسول الله ، وكان أنس ينظر إليهم بإعجاب ثم يقول «ما أشبهكم بأصحاب محمد رسول الله . . . والله لأنتم أحب إلى من عدة ولدي ، إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم ، وإني لأدعو لكم بالأسحار»[٢] كان مالك بن دينار إذن من تلامذة «خادم رسول الله» روى عنه ، كما روى عن «جماعة من كبار التابعين» كالحسن البصري وابن سيرين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله . ولذلك نرى الذهبي يصفه بأنه «من علماء البصرة وزهادها المشهورين» ويقرر أن البخاري استشهد به ووثقه النسائي وتوفي سنة إحدى وثلاثين ومائة[٣] .

* * *

٢ – محمد بن واسع :

وبينما كان مالك بن دينار يعلن في أعماق البصرة روح العبادة ، ويصيح «لوجدت أعواناً لناديت في منار البصرة بالليل . . . النار . . . النار . . .» كان هناك صديقه وتلميذ الحسن البصري الآخر – محمد بن واسع – يحاول إخفاء الجوهرة فيه . . .

كان محمد بن واسع من تلامذة الحسن المقربين ، وكان الحسن يسميه زين القراء . ولم يحاول محمد ابن واسع قط الدخول على الأمراء ، وقد رأينا كيف كان يعيب على صديقه مالك بن دينار فعله هذا . بل إن مالكاً كان يقول «إن من القراء – قراء ذا الوجهين . إذا لقوا الملوك ، دخلوا معهم فيما هم فيه ، وإذا لقوا أهل الآخرة ، دخلوا معهم فيما هم فيه فكونوا من قراء الرحمن . وإن محمد بن واسع من قراء الرحمن» . . . وعرض عليه القضاء ، فأبى ، وغضب أمير البصرة ، ودعاه بالأحمق ، فما كان من محمد بن واسع إلا أن رد عليه – ما زلت يقال لي هذا منذ أنا صغير» . وعاش محمد بن واسع في

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٦١ – ٣٧١ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٩٧ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٨١ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٠٩ والذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٤٢٦ .

تواضع عباد البصرة ، بل فى مقام المسكنة . وها هو ذا ينهى ابناً له يخطر فى مشيته «تعال . ويحك أتدرى ابن من أنت . أمك اشتريتها بمائتى درهم . وأبوك لا أكثر فى المسلمين أمثاله (١) وكان محمد بن واسع يخفى صومه وبكاءه . ويعيب على من يعلن حالة البكاء على الناس ، وينقد على أبى سلمة يحيى نسبته إلى البكاء ويقول : إن شر أيامكم يوم نسبتم فيه إلى البكاء (٢) وكان قليل الكلام ، يفضل الصمت ، ولم يكن يلبس الصوف ، «ولم يكن يرى كثير عبادة (٣) «كان يخفى عبادته ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولكن بالرغم من محاولته «هذه كان الناس ينظر إلى وجهه الرقيق ، فإذا هو كالثكلى . . . وتقول مولاة له فارسية لبعض أصدقائه «هذا رجل ، إذا جاء الليل لوكان قتل أهل الدنيا ما زاد» .

وقد وضع مؤرخو التصوف محمد بن واسع فى موازاة مالك بن دينار ، فمالك يشهد له بعظمته النفسية وعلوه على ما هم فيه . . . يأتى حوشب إلى مالك بن دينار ويقول له : يا أبا يحيى – رأيت البارحة كأن منادياً يقول : يا أيها الناس . الرحيل . . . الرحيل : فما رأيت أحداً يرتحل إلا محمد بن واسع . فصاح صيحة وخر مغشياً عليه (٤) . . . وينهى محمد بن واسع صديقه مالك بن دينار عن الدخول على الأمراء – فيقول مالك «إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع (٥) . ويسمع محمد مالكاً يقول لابن حوشب : لا تبيتن وأنت شبعان ، ودع الطعام ، وأنت تشتهيه . فقال حوشب : هذا وصف أطباء أهل الدنيا ، فيقول محمد بن واسع : نعم . ووصف أطباء طريق الآخرة . فقال مالك : بخ بخ للدين والدنيا : ويجتمع الصديقان : فيقول مالك : إنى لأغبط رجلاً معه دينه له قوام من عيش ، راض عن ربه عز وجل فيقول محمد بن واسع . إنى لأغبط رجلاً معه دينه ليس معه شيء من الدنيا ، راض عن ربه . وانصرف القوم وهم يرون أن محمداً أقوى الرجلين» ويرى مالك أن طاعة الله هى كل شيء ، وإلا فالنار ، ويرد محمد بن واسع ، أن الطاعة لا ترقى إلى رتبة العفو «إنما هو عفو الله أو النار» (٦) ثم لا نرى فى تراث محمد بن واسع أثراً للإسرائيليات ، أو أخذاً عن الأنبياء السابقين . ولكن لا تختلف آراء الرجلين – كما سنرى بعد قليل – كان أحدهما يصرح والآخر يصمت . وهذا كل ما بينهما من خلاف . ومن العجب أننا نرى مؤرخى التصوف – يعتبرونه «أحد الأبدال» بل

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٤٥ – ٣٥٠ وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ١٩٣ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٤٧ وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ١٩٣ .
(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٢ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩١ .
(٥) أبو نعيم : حلية ج ٣٥٤ ، وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ١٩٣ .
(٦) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٥١ .

الوحيد منهم فى العراق فى عصره .

كان محمد بن واسع ، من القراء ، ومن الخائفين ، وكان هو يقول «ما ظنك برجل يرحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة» وكان أيضاً يردد «يا إخوتاه . تدرون أين يذهب بى ! يذهب بى – والله الذى لا إله إلا هو – إلى النار أو يعفو عنى» . . . ويخشى الذنوب ، بل كانت حياته – وهو العابد الزاهد الخائف – ذنباً وخطيئة «لو كان يوجد للذنوب ريح ، ما قدرتم أن تدنوا منى لنتن ريحى [١] ودعاه هذا إلى أن يزهد فى الدنيا وفى الناس ، بل كان يعلن من زهد هو ملك فى الدنيا وفى الآخرة» .

ثم بدأ يتكلم فى حركات القلب . فالقلب عنده هو وسيلة العبادة الحقيقية فأخذ يفتش عن أدوائه : أربع يمتن القلب : الذنب على الذنب ، وكثرة مثافنة النساء وحديثهن ، وملاحاة الأحمق ، تقول له ويقول لك ومجالسة الموتى . وما سئل عن مجالسة الموتى هنا ، أجاب : بأنه مجالسة كل غنى مترف وسلطان جائر . ولقد كره محمد بن واسع الأمراء والحكام والسلاطين واعتبرهم – الظلمة – وإذا صلح القلب ، صح نداؤه ، واستجاب له السامعون . فالقلوب تتناجى ... لقد سمع قاصا يجلس قريباً من مسجده يقول «مالى لا أرى القلوب تخشع ، ولا أرى العيون لا تدمع ، ولا أرى الجلود لا تقشعر . فقال محمد بن واسع : يا عبد الله : مالى أرى القوم أتوا إنما من قبلك . إن الذكر إذا خرج من القلب ، وقع على القلب [٢] وكان يقول «إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله عز وجل ، أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين [٣] » . وابتعد ابن واسع عن أهل الأهواء ، وآمن بالقضاء والقدر ، ولما سأله أمير البصرة عن القضاء والقدر . أجاب «إن الله لا يسأل يوم القيامة عباده عن قضائه وقدره إنما يسألهم عن أعمالهم» ويذكر لرجل يبكى «أبكاك قط سابق علم الله فيك [٤] » فالرجل إذن كان جبريًّا ، يكره القدريين وينأى عنهم . وحين حانت منيته نادى فى أصحابه «يا أخوتاه ... هبونى وإياكم سألنا الله الرجعة ، فأعطاكموها ، ومنعنيها ، فلا تخسروا أنفسكم [٥] » .

وبعد : فإننا لا نرى بين محمد بن واسع ومالك بن دينار كبير اختلاف ، كان الاثنان من القراء ، ثم دخلا فى الوعظ ، فأكثر مالك ، وأقل محمد بن واسع . وقد روى الاثنان عن أنس بن مالك وعن الحسن وابن سيرين [٦] . وحين أرخ الذهبى له – كمحدث – قال : إنه أبو بكر البصرى الزاهد .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣٥١ .
(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٢ .
(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣٥٤ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٥ .
(٥) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٥ .
(٦) أبو نعيم حلية : ج ٢ ص ٣٢٩ .

أحد الأعلام ووثقه – ولكنه يورد عن يحيى بن القطان المحدث المشهور أنه سئل عن محمد بن دينار ومحمد بن واسع ... وغيرهما من الزهاد والصالحين . فقال «ما رأيت الصالحين فى شيء أكذب منهم فى الحديث ، يكتبون عن كل أحد [١] » وقد مات محمد من واسع – فيما يرجح ابن الجوزى سنة عشرين ومائة .

٣ — ثابت بن أسلم البنانى

وتتضح العبادة البصرية المختلطة بالقصص والوعظ لدى عابد من كبار تلامذة الحسن البصرى هو أبو محمد ثابت بن أسلم البنانى . وقد كان ثابت من المقربين للصحابى الكبير أنس بن مالك ، وكان أنس يسأل «أين ثابت ، أين ثابت ، إن ثابتاً دويبة أحبها» وكان يقول عنه «إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتاً مفتاح من مفاتيح الخير» بل يقال إن من أسباب إقباله على البكاء أن أنسا قال له . ما أشبه عينيك بعينى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] » . وقد احترم أحمد بن حنبل – ثابتاً وكان يقول إن «ثابتا أثبت من قتادة ، وكان يقص ، وكان قتادة أذكر – وكان محدثا» أما الذهبى فيقول إن ثابتاً ثابت كاسمه [٣] وقد أخرج له مسلم والنسائى وأحمد كان الرجل إذن مكتملا من الناحية النقلية ، بل إن الإمام أحمد بن حنبل يفضله على قتادة بن دعامة السدوسى أحد محدثى البصرة الكبار .

أما عن عبادته ، فقد قال عنه أبو بكر بن عبد الله المزنى القاص والعابد المشهور «من أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه ، فلينظر إلى ثابت البنانى ما أدركنا أعبد منه [٤] » . بل «إنه ليظل فى اليوم المعمعانى الطويل ، ما بين طرفيه ، صائما يروح ما بين جهته وقدمه» وكان هو يعلن أن أساس العبادة الصوم والصلاة . إنهما فى لحم العابد ودمه ، وكان يعرف صعوبة الصلاة ذات الاطمئنان ، ذات النعيم الباسق ، ويقرر أنها مكابدة ومعاناة . يقول : «كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة [٥] » وقد استفاضت كتب الطبقات بصلاته وصومه ، وكان يرى أن الطريق الوحيد للدعاء ولاستجابة الدعاء ، هو الصلاة . وكان أيضاً يكثر البكاء ، حتى عمشت عيناه . ومن الغريب أن يفعل هذا ، وقد روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله غنى عن تعذيب الإنسان

---

(١) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ١٨٤ .

(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال . . ج ١ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٤) نفس المصدر السابق : نفس الصحيفة .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ .

لنفسه [١] . وقد كان هو نفسه «يلبس الثياب الثمينة والطيالسة والعمائم [٢] » .

ولقد كثرت الأدعية المأثورة عن ثابت «يا باعث يا وارث لا تدعنى فرداً وأنت خير الوارثين» كما كان يدعو بأن يأذن له فى الصلاة فى قبره بعد موته . . ولكن هل أقترب ثابت من روح التصوف . ذكر أبو نعيم عن البكرى يصف ثابتاً : ما رأيت أحداً أشد حبًّا لربه عز وجل من هذا الأعمش فهو هنا من طائفة المحبين ، ويذكر السراج الطوسى أن ثابتا يروى عن عمران بن حصين الصحابى ، ولكنه ما يلبث أن يدلى برأى فى الذكر يفزع الجالسين : إنى لأعلم متى يذكرنى ربى عز وجل ، ففزع الناس وقالوا : تقول تعلم حين يذكرك ربك ، قال : نعم : قالوا : متى ، قال : إذا ذكرته ذكرنى ... [٣] » وهذا معنى لم تكن تعرفه العبادة ، وسيأخذ عند الصوفية من بعده معانى أعمق ، عن الذاكر والمذكور ، واستجابة الواحد للآخر ... وهذا مدخل خطير فى التصوف ، وبلا شك لم يتنبه ثابت البنانى إلى خطورته إننا سنجد حديثاً أو ما يشبه الحديث ، أنا جليس من يذكرنى ... يأخذ نفس الصورة ، ويستخدم فى نظرية ، وحدة الشهود بل فى نظرية الحلول . ويقترب أيضاً من التصوف الحلولى فى دعاء له «إليك رفعت رأسى يا عامر السماء . نظر العبيد إلى أربابها - يا ساكن السماء [٤] » وهذا قول صريح فى حلول الله فى المكان ، فهل تنبه ثابت أيضاً إلى هذا . إنى لأشك أيضاً أنه كان يشعر بما يؤديه هذا القول من نتائج .

٤ - أيوب بن أبى تميمة السختيانى

وانتشر الصوف فى البصرة ، وأقبل العباد عليه ، ويلبسه كبير من كبار عباد البصرة - وهو بديل بن ميسرة العقيلى (توفى عام ١٣٠هـ) . وكان بديل عالما وقاصا وكان يقول لأهل البصرة «من أراد بعلمه وجه الله عز وجل ، أقبل الله عليه بوجهه ، وأقبل بقلوب العباد عليه ، ومن عمل لغير الله عز وجل ، صرف الله عنه وجهه ، وصرف قلوب العباد عنه» وكان يصوم الدهر ، ويقول : الصيام معقل العابدين [٥] » ... وقد آلم وأمض هذا أيوب بن أبى تميمة السختيانى (المتوفى فى عام ١٣١هـ) وكان أيوب من كبار تلامذة الحسن ، وكان الحسن يدعوه «سيد شباب أهل البصرة» «وهذا سيد الفتيان» .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٢) الذهبى : ميزان الاعتدال . . ج ١ ص ٣٦٣ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ص ٣٢٧ .

(٥) ابن الجوزى صفة ج ٣ ص ١٨٩ .

وقد وضع أيوب « بذرة الفتوة » . لبس هؤلاء الصوف ، وقصروا ملابسهم ، فلبس هو « القمصان الجيدة الهروية والقلانس والأدرية المترفة . فلما كلمه أصدقاؤه فى هذا ، قال « الشهرة اليوم فى التشمير» وكان منظره هذا يبعده عن أن يكون ناسكا . بحيث يقول حماد بن زيد – من عباد البصرة – « لو رأيتم أيوب ثم استسقاكم شربة على النسك ، لما سقيتموه » وكان أيوب يقول « إن قوما يريدون أن يتواضعوا ، ويأبى الله إلا أن يرفعهم » ... وإذا ذكر الصالحون أمامه ، قال فى نبرة الفتوة « إذا ذكر الصالحون ، كنت منهم بمعزل » وكان يتجنب فى سيره طرق الشهرة . ويرى أن العفة والصفح هما صفتا العابد « لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان ، العفة عما فى أيدى الناس ، والتجاوز عما يكون منهم » ... ويتجاوز هو تجاوز الفتيان ، بحيث نراه – وقد آذاه رجل هو وأصحابه أذى شديداً – يقول : « إنى لأرحمه . إنا نفارقه وخلقه معه » ، وكان يبتسم فى وجوه من يقابل أشد التبسم ... وكان إذا استمع إلى حديث الرسول يبكى ، ويذهب أيوب للحج ، ومعه عبد الواحد بن زيد ويعطش عبد الواحد ابن زيد ، ولا يجد ماء على جبل حراء ، ويرى أيوب هذا فيستحلفه ألا يذكر لأحد – ما دام حيًّا – ما سيفعله . ويقسم عبد الواحد بن زيد . فيضرب أيوب الأرض بقدمه ، فينفجر الماء ، ويشرب عبد الواحد بن زيد حتى يروى .

كان أيوب يخفى جوهرة التصوف فى أعماقه ، وكان يكره كل بدعة سواء فى الملبس أو فى الفكر ، فيكره أهل القدر ، ويتأسف على موت أهل السنة » ... وحين مرض ، دخل عليه بديل بن ميسرة وعليه الصوف ، ورآه بديل على فراش وثير ... وعليه غطاء أحمر ... فأنكر بديل عليه هذا ، فرد عليه أيوب . هذا خير من الصوف الذى عليك [1] » .

وهكذا . . . أقام أيوب السختيانى أسس « الفتوة » فى أعماق البصرة . والتزم سنة « الحسن » ، الحفاظ على المظهر الإسلامى ، مظهر الفقيه الصالح العابد ، داخلا فى حظيرة « العبادة » فى صمت ، مخيفاً أحاسيسه عن الناس معتبراً الشهرة وإظهار التعبد خطيئة . فكان يصيح كما ذكرت من قبل « إذا ذكر الصالحون كنت منهم بمعزل » .

* * *

٥ – تلاميذ آخرون : صالح المرى وزملاؤه

ولم تتوقف صرخة الوعظ العبادى ، بل زادت فى أعماق البصرة ، وأقبل على الحسن البصرى شباب

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢١٢ – ٢١٧ .

من الموالى ومن العرب ، يقرأ القرآن فى حلقته ، وكان على رأس هؤلاء صالح المرى وسنبر الدستوائى وعطاء السليمى . . .

أما صالح المرى ، فهو صالح بن بشير ، وكنيته أبو بشر ، كان مملوكا لامرأة من بنى مرة بن الحارث من بنى عبد قيس (١) . فكان صالح إذن – فى الأرجح فارسيًّا . ويعرف الجاحظ به فيقول « صالح المرى القاص العابد البليغ (٢) » . أما الذهبى فيقول : صالح بن بشير الزاهد . أبو بشر المرى الواعظ » فكأن أميز صفة عرفها الناس عنه هى « الوعظ » . غير أن الوعظ عنده كان قد بلغ مداه ، « إذا أخذ فى قصصه ، كأنه رجل مذعور يفزعك أمره من حزنه وكثرة بكائه ، كأنه ثكلى . كان شديد الخوف من الله (٣) . كان صالح إذن من القصاص ، كما كان من القراء . وقد عرف بصالح القارئ . ويبدو أن مزاجه الفارسى أضفى على قصصه ووعظه وقراءته دقة فى التعبير ، وغرابة تفجأ السامع . وكان سفيان الثورى يكره الوعظ ، ولكنه استمع ذات يوم لصالح المرى فبكى وقال « ليس هذا بقاص ، هذا نذير قوم (٤) » وكان صالح يفتن فى وصف النار فيستمع الناس حتى المخنثين والمؤنثين من شباب البصرة ، فيصيبهم الصعق . ويقرأ القرآن متخيرا آياته التى تتكلم عن النار ، فيسقط المستمعون « مصعوقين (٥) » . كان « الصعق » ميزة أوائل وأواسط القرن الثانى الهجرى . وكان صالح المرى من أوائل الوعاظ الذين أرسلوا صيحات الصعق فى الكوفة . وقد امتلأت كتب مؤرخى العباد والصوفية بأخبار صيحاته . بل إن عابداً مشهوراً من عباد البصرة هو أبو جهير مسعود الضرير كان يردد لامرأته « إن قرأ على صالح فتلنى » فلما دخل عليه صالح المرى مع مجموعة من رجال الحسن وعرف أبو جهير أن بينهم صالحاً ، طلب منه أن يقرأ ، فقرأ (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) صرخ أبو جهير وغشى عليه ومات (٦) . . .

أما صور وعظه فكثيرة ،وأقواله تتسم بالعمق . . . فهو يصيح فى أهل البصرة أنهم أمروا بالرحيل ، ولكنهم يلهون . « يا عجباً لقوم أمروا بالزاد وأذنوا بالرحيل ، وحبس أولهم على آخرهم ، وهم يلعبون » ، ويقول أيضاً فى نفس المعنى : وكيف تقر بالدنيا عين من يعرفها . . . ثم يبكى ويقول : خلفة الماضين وبقية المتقدمين ، رحلوا أنفسكم عنها قبل الرحيل ، فكأن الأمر قريب نزل بكم » ويتطلب الخوف ، وأن يزرعه الله فى قلبه ، هو عاصم الشهوات « اللهم إنى أسألك خوفاً غير ناهض ،

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٦٥ . (٢) الجاحظ : البيان والتبين ج ١ ص ٩٣ .
(٣) الذهبى : ميزان ج ٢ ص ١٨٩ وأبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٦٧ .
(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٦٧ . (٥) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١١ .
(٦) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٥١ .

ولا قاطع ، خوفا حاجزا عن معصيتك ، مقوياً على طاعتك ، وأسألك صبرا على طاعتك وصبرا على معصيتك [١] » .

ولكن هل اقتحم أيضا صالح المرى باب التصوف . إننا نجد بعض اللمحات الجميلة صدرت عنه يتكلم فيها عن التفكير فى الذنوب ، وهذا التفكير هو من دواع البكاء . والتفكير يصدر من القلب أو إن القلب يستجيب ، فإن لم يستجب القلب ؛ فأعرض عليه مواقف القيامة ، وينقل عن الحسن « تفقدوا الحلاوة فى ثلاث : فى الصلاة وفى القرآن وفى الذكر . فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا ، وإن لم تجدوها ، فاعلم أن بابك مغلق [٢] » .

أما اللمحة الأخرى الصوفية ، فهى تعلقه بفكرة الاسم الأعظم ، وهى فكرة صوفية هامة ستلعب دورها كما قلت من قبل لدى الصوفية فيما بعد ، ورجال الطرق ، ولدى الغلاة من الشيعة . . يقول صالح المرى « إذا أجبت أن يستجاب لك ، فقل : اللهم إنى أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطهر الطاهر المطهر المقدس ، . . . فما دعوت به فى شىء إلا تعرفت الإجابة [٣] » .

ولا عجب بعد ذلك أن يجرحه رجال الحديث . ويقول الإمام أحمد بن حنبل « هو صاحب قصص ، وليس هو صاحب حديث ، ولا يعرف الحديث » وتوفى صالح المرى سنة ثلاث وسبعين ومائة [٤] .

وكان يعاصر صالحا المرى مجموعة من رجال الحسن أيضا ، منهم هشام بن أبى عبد الله المشهور بسنبر الدستوانى ، (المتوفى عام ١٥٣ هـ) وعطاء السليمى وقد وصفه الذهبى فقال إنه من كبار الخائفين فى البصرة . . . وأن غالب ما عنده الحكايات . . . ولم يذكر تاريخ موته [٥] . وشميط بن عجلان وحسان بن أبى حسان – وقد كان لهذين الأخيرين أثر فى رباح بن عمرو القيسى العابد المحب .

* * *

كان القرآن الأول – كما رأينا – قرن الخوف فى مجال الحياة الروحية فى الإسلام ، مستندا على القرآن والسنة ، مستلهما أحداث الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وانتشر المد الخوفى إلى القرن الثانى ، فشمل روح الحياة أيضا ؛ وانتشر لدى العباد – كما رأينا – وتمكن فى أعماق البصرة ، ولكن لا بد لكل قرن – وهذه سنة حضارية – من صبغة تختلف به عن القرن الذى سبقه ، وسنجد هذه الصبغة التى تجتاح القرن الثانى – وتعطى صبغة من اطمئنان على روح الحياة الروحية فى هذا القرن – وهذه الصبغة ، هى « الحب » الإلهى « مختلطا بالخوف ، أو بالحب الإلهى نقيا . . .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٦٥ ، ١٦٨ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٦٧ ، ١٧١ .
(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ١٦٨
(٤) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٥) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٧٨ ، ٧٩ .

الفصل السادس

رواد الحب الإلهى الأوائل

صرخ الحسن البصرى صرخته الرهيبة فى أعماق البصرة ، منذرا الناس فى أرجاء العالم الإسلامى جميعا بالعذاب الأبدى للخاطئين ، وصور لهم النار الأبدية التى تشتعل فى ضمير الغيب أمامهم ، وبين لهم – قصر الحياة وتفاهتها ووضح لهم طريق الآخرة ، وامتزج الحزن بالقلوب ، والدموع بالعيون . . . وأقبل عليه « الخائفون » . . . وترددت صور النيران أمام مجتمع البصرة ، وسرى أن خوف البصرة وبكاءها سرعان ما انتقل إلى الكوفة والمدائن وواسط وخراسان والشام والمدينة ومصر . . . ونظر الجميع إلى غضب الله . ولم ينظروا إلى رحمته ، وتأمل الجميع انتقامه ، ولم يتأملوا عفوه . . . هكذا كانت حياة الروح فى العالم الإسلامى، وقد ساد العالم الإسلامى القلق النفسى والروحى ، كما ساده القلق الاجتماعى ، والقلق الاقتصادى . ولكننا بالرغم من هذا قد رأينا لمحات من اطمئنان إلى الله ورضاه وعفوه ، بل رأينا لمحات من الحب لدى هؤلاء العباد الأوائل ، حقاً إن هذا الحب لم يكن ذوباناً فى الله ، ولكنه كان تأملا ذا عمق فى الروح الإلهية الخالدة ، ولقد رأينا كيف أعلن أول عابد فى الإسلام – عامر بن قيس – لمحة من لمحات المحبة الإلهية « أحببت الله حبا سهل على كل معصية ، ورضانى بكل قضية – فما أبالى مع حبى إياه ما أصبحت عليه » كما رأينا من قبل زاهدا من نفس قبيلة عامر بن عبد قيس ، وهو خليد بن عبد الله العصرى يقول « يا إخوتاه – هل فيكم من أحد لا يحب أن يلقى حبيبه ، ألا فأحبوا ربكم وسيروا إليه سيراً كريماً » .

كان هذان العربيان أول من نطق من عباد الإسلام بلمحات المحبة الإلهية وقد قلت من قبل إننى لم أجد فى حياة هذين العابدين صدى لمؤثر خارجى، اللهم إلا إذا قلنا – إنهما من قبيلة عبد قيس الغامضة ، يشوب تاريخها قبل الإسلام الغموض ، هل تمسحت ، هل انتشرت فيها المسيحية ، هل كانت هذه القبيلة من أصل فارسى . ويزيد غموضها أنها تشيعت فيما بعد ، بل انتشر التشيع الغالى فيها . قد يكون كل هذا حقًّا ، ولكن النقد الداخلى للنصوص التى تركت لنا عن هذين العابدين لا يقدم لنا دليلا خارجيًّا أو باطنيًّا أنهما تغنيا بلمحات الحب الإلهى عن مصدر خارجى .

ثم يأتى بعد حبيب العجمى . وقد قلت من قبل إنه أيضاً عبر عن الحب الإلهى «وعزتك إنك لتعلم أنى أحبك» بل من العجب – وكما لا حظ الدكتور كامل الشيبى بحق – أن السمعانى حين أرخ له ذكر أن «أخباره فى العشق والعبادة مشهورة» (١) وقد ذكرت من قبل جملة من أحاديثه فى الأنس بالله والفرح به ، ثم محبته .

ولقد استمع إلى صيحة الحب نفسها فى أيام الحسن البصرى على لسان عابدة عرفت باسم بردة الصريمية . كانت بردة عابدة من كبار العابدات ، ويذكر أشرس أبو شيبان – وكان عابداً من البكائين عن ثابت البنانى أنها من نساء الصدر الأول ، وأنها عاصرت الحسن البصرى وكانت تكثر من البكاء ، حتى فسد بصرها . فلما كلمها بعض العباد ، فى هذا وقد خافوا أن يذهب بصرها كلية : قالت : دعونى . فإن أكن من أهل النار ، فأبعدنى الله وأبعد بصرى ، وإن أكن من أهل الجنة ، فسيبدلنى الله عينين خيراً من عينى . وأخبر الحسن بأمرها فذهب إليها وقال : لها : يابردة إن لبدنك عليك حقًّا وإن لبصرك عليك حقًّا . قالت : يا أبا سعيد : إن أكن من أهل الجنة ، فسيبدلنى الله خيراً من بصرى ، وإن أكن من أهل النار ، فأبعد الله بصرى . وكانت تردد «أصبحنا أضياقاً منتجعين بأرض غربة ننتظر الداعى» وإذا سمعت القرآن ، صرخت وتكلمت بما لا تريد . . . «ربما سمعت القرآن ، فأرى ملك بنى مروان ، قد حوى لى» ثم كانت أولى من أعلن صرخة الحب ، وسبقت رابعة فى نفس أقوالها ، أو كأن رابعة رددت أقوالها فيما بعد . كانت تقوم الليل ، فإذا سكنت الحركات وهدأت العيون نادت بصوت لها حزين «هدأت العيون وغارت القلوب ، وخلا كل محبوب بحبيبه ، وقد خلوت بك يامحبوبى ، أفتراك معذبى ، وحبك فى قلبى . لا تفعل يا حبيباه» (٢) وسيتردد هذا المعنى بل هذه العبارات – لدى العباد من بعدها ، ولدى رابعة من بعدها .

وتتردد معانى الحب الإلهى أيضاً لدى كهمس بن الحسن القيسى التميمى والمشهور بكهمس الدعاء (المتوفى سنة ١٤٩ هـ) . كان كهمس يقول فى جوف الليل «أراك معذبى – وأنت قرة عينى – ياحبيب قلباه» (٣) وإذا حاولنا أن نتبين دواعى هذه الصرخة . فى حياة الرجل ، لرأينا أنها أيضاً صادرة عن الخوف والبكاء . . . بكى كهمس أربعين سنة – فيما يقولون ، وكانت حياته صورة من حياة الآخرين : اعتزال للفتنة السياسية ، ثم كراهية للقدرية ، وكان عمرو بن عبيد وأصحابه يأتون إليه

---

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٢٤ والسمعانى . الأنساب ورقة ١٣٨ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٣ و ٢٤ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢١٣ .

ويجالسونه ، فنهته أمه – وكانت امرأة عابدة ، وقد لزمها كهمس للخدمة ، فامتنع عن [١] مجالستهم . وقد خرج كهمس مع أمه إلى مكة ، وعاش فيها حتى مات ولم يكن هذا المحدث الثقة [٢] – كما يدعوه الذهبي – يغلي بالحب ، كما يغلي بالخوف . بل إنه لم يطمئن إلى هذه المحبة ، كما اطمأن إليها معاصره حبيب العجمي أوسابقوه من أمثال عامر بن عبد قيس أوخليد بن عبد الله العصري .

١ – عبد الواحد بن زيد : أول محب حقيقي من الزهاد

غير أن فكرة الحب ما تلبث أن تسود الحياة الروحية لعابد من أكبر عباد البصرة ووعاظها الزهاد ، وهو عبد الواحد بن زيد (توفى عام ١٧٧هـ) . وقد عبر أبو نعيم عنه أبلغ تعبير . . .حين قال « المنفلت من القيد ، المتصيد للصيد » . . . انفلت من قيود الفكرة العذابية النارية متصيداً للوجه الإلهي . . . ولعل هذا ما دعا ابن تيمية إلى اعتباره أول صوفي على وجه الحقيقة . وذكر الذهبي أنه « شيخ الصوفية وواعظهم » [٣] . وتردد ذكره كثيراً على لسان أبي سليمان الدارانى شيخ مدرسة الشام وتلميذه أحمد بن أبي الجوارى [٤] والفضيل بن عياض ، تخرج عبد الواحد بن زيد فى مدرسة الخوف والبكاء والعبادة ، وكان يحضر حلقة مالك بن دينار فى المسجد ، وكان الناس لا يفهمون كلام مالك لكثرة بكاء عبد الواحد [٥] ولزم المشايخ الكبار من تلاميذ الحسن وحضر وفاة أكثرهم : حبيب العجمي . وحوشب ، وقد فجعه موت هذا الأخير وخاطبه – وهو يدفن : يا أبا بشر . لقد كنت حذراً من مثل هذا اليوم رحمك الله يا أبا بشر . فلقد كنت من الموت جزعاً . أما والله لئن استطعت ، لأعملن رحلي – بعد مصرعك هذا » ثم شمر للعبادة واجتهد [٦] . وكان يردد « ما يسرني أن لي جميع ما حوت البصرة من الأموال والثمرة بفلسين » .

ثم بدأ سياحاته ، فذهب إلى فارس مع فرقد السبخي ، ومحمد بن واسع ومالك بن دينار . ورأوا فى الطريق ضوءاً فى سفح جبل ، فذهبوا لاستطلاع الأمر ، فرأوا خصًّا لمجذوب يقطر قيحاً ودماً ، وألمهم أمره ، فطلب منه أحدهم : أن يذهب إلى البصرة يتداوى ويتعالج من بلائه هذا . فأجاب

---

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١١ ، ٢١٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٤١٥ – ٤١٦ .
(٣) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٦٧٣ .
(٤) وأبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٥ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٥٩ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٤١ .
(٦) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٥٩ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٤١ .

الرجل وقد رفع طرفه إلى السماء «إلهى – أتيت بهؤلاء ليسخطونى عليك . لك الكرامة والعتبى أن لا أخالفك أبداً» .

ثم خرج إلى بيت المقدس هو ومحمد بن واسع ومالك بن دينار ، فلما كانوا بين الرصافة وحمص – سمعوا منادياً من بين الرمال يصيح : يا محفوظ يا مستور . أعقل . فى ستر من أنت . فإن كنت لا تعقل فاحذر الدنيا ، واذا كنت لا تحسن أن تحذرها ، فاجعلها شقة وانظر أين تضع رجلك .

ومر مع مجموعة من أصحابه وهو فى سفرة له ، براهب فى صومعته ، فطلب من أصحابه أن يتوقفوا قليلاً . ثم نادى الراهب : يا راهب . فكشف ستراً على باب صومعته : فقال : يا عبد الواحد ابن زيد. إن أحببت أن تعلم علم اليقين فاجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد »[1] ثم أرخى الستر . وقد رأينا من قبل وسنرى كثيراً فى حياة المتصوفة – أمثال تلك المواقف الدارماتيكية المتصنعة عن راهب يتكلم مع مجموعة العباد . يكشف لهم عن جوهر العبادة ، أو سر التصوف . وهنا نراه يلقى عليه بسر « علم اليقين » هو أن تحجز دونك الشهوات ، فلا تخترق الشهوة هذا الحاجز الحديدى .

ويذهب إلى الكوفة . بعد أن راوده رؤيا سمع فيها صوتاً يقول له : رفيقك فى الجنة ميمونة السوداء . فلما سأل عن ميمونة قيل له : إنها مجنونة ترعى أغناماً ، وتقضى أوقاتها فى الجبال مع غنيماتها . فلما ذهب إليها ، رآها قائمة تصلى ، وقد تركت أغنامها وقد اختلط بها بعض ذئاب الصحراء فلا الذئاب تفترس الغنم ، ولا الغنم تخاف الذئاب . ولما رأت ميمونة رجلاً مقبلاً – أوجزت صلاتها ثم نظرت إليه وقالت : ارجع يابن زيد ، ليس الموعد ههنا ، إنما الموعد ثم . فسألها رحمك الله ، وما يعلمك أنى ابن زيد . فقالت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . فطلب منها أن تعظه . فقالت : واعجبا – لواعظ يوعظ . ثم قالت : يا ابن زيد لو وضعت معايير القسط على جوارحك ، لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها يا ابن زيد إنه بلغنى : ما من عبد أعطى من الدنيا شيئاً ، فابتغى إليه ثانياً ، إلا سلبه الله حب الخلوة معه ، ويبد له بعد القرب ، البعد ، وبعد الأنس ، الوحشة .

ثم أنشأت تقول :

يا واعظاً قام لاحتساب ... يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى – وأنت السقيم حقًّا ... هذا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا ... غيك أو تبت من قريب

---

(١) أبو نعيم حليه ج ٦ ص ١٥٥ – ١٥٦ .

كان لما قلت يا حبيبي موقع صدق من القلوب
تنهى عن الغى والتمادى وأنت فى النهى كالمريب

فقال لها : إنى أرى هذه الذئاب مع الغنم ، لا الغنم تفزع من الذئاب ، ولا الذئاب تأكل الغنم. فاسر هذا. فقالت : إليك عنى ، فإنى أصلحت ما بينى وبين سيدى ، فأصلح بين الذئاب وبين الغنم [١] .

ومن المحتمل أن تكون القصة رمزية غير حقيقية ، ولكنها تبين لنا طريق السلوك الذى كان على عبد الواحد بن زيد أن يختطه ، أن يصفى الدنيا من جوارحه ، وأن يتركها تركاً مطلقاً ، فلا تراوده وإلا تبدل قربه بعداً وأنسه وحشة — فإذا صلح القلب ، صلحت لك الدنيا ، وأطاعتك الكائنات أنامى وحيوانات . . . فعاشت — فى اطمئنان وسلام . . . الذئاب مع الأغنام . وهذه التصفية التى حاول أن يعانيها هى روح « التصوف » فيكون الصوفى عين الله ويده . وهل تلك المعاناة التى كان يعانيها عبد الواحد بن زيد هى ما دعت ابن تيمية — فيما بعد — إلى أن يعتبره الصوفى الأول .

وازداد بث عبد الواحد بن زيد وعبادته ، فإذا أقبل سواد الليل ؛ بدا « وكأنه فرس رهان مضمر متحزم . ثم يقوم إلى محرابه . . . عابداً متهجداً متحنثاً « فكأنه رجل مخاطب [٢] » .

ويتبدى له جوهر التصوف فى ليلة نام فيها عن قراءته ، تبدت — كما يقول سليمان الدارانى — فى صورة امرأة جميلة ، عليها ثياب خضر ، وفى رجليها نعلان ، والنعلان يسبحان ، والزمامان يقدسان ، وهى تقول له : يا بن زيد جد فى طلبى ، فإنى فى طلبك .

ثم أخذت تترنم :

من يشترينى ومن يكن سكنى يأمن فى ربعه من الغبن

وسأل عبد الواحد بن زيد : ما الثمن ؟

فأجابت

تودد الله مع محبته وطول فكر يشاب بالحزن

وسأل : لمن أنت . . .

فأجابت

لمالك لا يرد لى ثمناً من خاطب قد أتاه بالثمن

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٨ — ١٥٩ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٢١ ، ١١٢ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٤٢ .

وانتبه عبد الواحد بن زيد ، وقد أيقن أن الطريق طويل ، وأن عليه ألا ينام الليل [١]. واتضح له – أن الغاية النهائية من العبادة هى المحبة الإلهية الممتزجة بالتأمل الحزين . ومات ابنه ، وكان من العباد ، فوجد عليه وجداً شديداً ، وذكره يوماً ، فدمعت عيناه وقال : لقد نغص على الحياة بعده . ولكنه استرجع وقال : هل الحياة إلا متنغصة [٢] .

ومضت الأحزان والرؤى تجلى قلبه : فيقف فى المسجد قائلاً : يا إخوتاه ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل ، ألا إنه من بكى شوقاً إلى سيده ، لم يحرمه النظر إليه . . . يا إخوتاه ألا تبكون خوفاً من النيران . ألا إنه من بكى خوفاً من النار أعاذه الله منها : يا إخوتاه ألا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ، يا إخوتاه – ألا تبكون على الماء البارد أيام الدنيا ، لعله يسقيكموه فى حظائر العرش مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » [٣] ونلحظ هنا أنه أثار مشكلة الشوق ، ومشكلة رؤية الله ، والنظر إلى وجهه الجميل . . ولعل هذا أيضاً ما حبب ابن تيمية فيه . وقد أقام بن تيمية نوعاً من التصوف ، منتهاه رؤية الله فى الآخرة ، والتلذذ بالنظر إلى وجهه .

وتزداد عظات عبدالواحد بن زيد قوة، فكانت الناس تصعق أثناء موعظته ، ويموت البعض منهم [٤] . بل تذكر كتب الطبقات أنه كان يعظ يوماً ، فناداه رجل من ناحية المسجد : كف عنا يا أبا عبيدة . فقد كشفت قناع قلبى » ولم يقطع عبد الواحد موعظته بل استمر فيها ، فحشرج الرجل حشرجة الموت ، ثم مات [٥] .

دعا عبد الواحد بن زيد إلى الحزن والبكاء كما دعا إلى الجوع « يا معشر إخوانى ، عليكم بالخبز والملح ، فإنه يذيب شحم الكلى ويزيد فى اليقين » ويقول « من قوى على بطنه ، قوى على دينه ، ومن قوى على بطنه ، قوى على الأخلاق الصالحة ، ومن لم يعرف مضرته فى دينه من قبل بطنه ، فذاك رجل فى العابدين أعمى » [٦] ولكنه طلب هذا ، لكى يصل الإنسان خلال عبادته إلى تودد الله وتشوقه ، لرؤية وجهه الكريم – كما قلنا من قبل – ويزداد شوقاً لله فيقول « وعزتك لا أعلم لمحبتك فرحاً دون لقائك ، والاشتفاء من النظر إلى جلال وجهك فى دار كرامتك ، فيا من أحل الصادقين دار

(١) أبو نعيم : الحلية . . . ج ٦ ص ١٥٧ – ١٥٨ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٣٤٣ .
(٢) أبو نعيم : الحلية . . . ج ٦ ص ١٦٠ .
(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٦١ ، وابن الجوزى . صفة ج ٣ ص ٢٤٢ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٤١ .
(٥) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٩ – ١٦٠ وابن الجوزى . صفة ج ٤ ص ١٠ .
(٦) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٥ – ١٥٧ .

الكرامة ، وأورث الباطلين منازل الندامة ، اجعلنى ومن حضرنى من أفضل أوليائك زلفى ، وأعظمهم منزلة وقربة » [١] .

وقد رأيناه يتكلم عن الشوق والقرب ، فهل لم يذكر الرضا – إن العابد الخائف أمن إلى الرضا آخر الأمر . وفى لغة صوفية أخذ يقول « الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ومستراح العابدين » ، بل إن الرضا أعظم من الصبر « ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا . . . . ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا ، وهى رأس المحبة . . . . ثم يقول . . . . « أتراك تصبر لمحبته عن هواك ، فيخيب صبرك . لقد أساء بسيده الظن من ظن به هذا » ثم بكى وقال « بأبى أنت يامسبغ نعمة غادية ورائحة على أهل معصية ، فكيف ييأس من رحمة أهل محبته » .

وانتهى الخوف . . . وقد سأله زياد النميرى : ما منتهى الخوف : فقال : إجلال الله عند مقام السوءات : فلما سأله : فما منتهى الرجاء : قال : تأمل الله على كل الحالات » وحين تأمل الله فى كل الحالات . . . استسلم الإستلام المطلق للإرادة الإلهية ، فعاد – سواء عنده – أن يبقى فى الحياة ، لينفذ أوامره ونواهيه ، أو أن يخرج إلى الله شوقاً إليه . إنه فى المشيئة ، مستسلماً خاضعاً ، وقد فنى عن إرادته [٢] .

وأحسن أحوال العابد : موافقة الله ، حبًّا فى أمره ومشيئته [٣] فلو قرض لحمه بالمقاريض – كما تعلم من مجذوم فى نواحى البصرة ، ونشرت عظامه بالمناشير « ما ازددت لك إلا حبا فاصنع بى ما شئت [٤] » .

كان عبد الواحد بن زيد إذن من أوائل من نادوا بالمحبة الإلهية ، وصوروها على أنها نهاية طريق العابدين . وقد أثر فى الصوفية من بعده حتى اعتبر – كما قلت – الصوفى الأول . ويذهب السراج إلى أن عبد الواحد كان من أوائل من نطق باسم الصوفية ، بل وصفهم ، فحين سئل « من الصوفية عندك . فقال : القائمون بعقولهم على همومهم ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم ، هم الصوفية » [٥] ومع ظهور الانتحال فى النص ، إلا أنه يدل على ما كان للرجل من مقام كبير لدى أجيال الصوفية من بعده ، وقد ترك لهم ميراثاً فى الحب الإلهى ، لم يصل إلى صورته الكاملة

---

(١) نفس المصدر : ج ٦ ص ١٥٦ .
(٢) نفس المصدر : ج ٦ صفحات ١٥٦ – ١٦٣ – ١٦٠ .
(٣) الشعرانى : ٤ طبقات ج ١ ص ٣٩ – .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١١ .
(٥) السراج الطوسى : اللمع ص ٤٥ .

ولم يتخل عن الجانب الحسى لرؤية الوجه الإلهى . ولكنه أبان طريق المحبة لمعاصرته رابعة القيسية المشهورة برابعة العدوية . بل كان أستاذها .

* * *

٢ – عتبة الغلام ، المحب الشهيد :

غير أن كأس المحبة قد تجوهر فعلاً عند عابد آخر من عباد البصرة ، وصديق لعبد الواحد بن زيد وأستاذ لرباح بن عمرو القيسى ، وهو عتبة الغلام . وسيكون لتلميذه رباح أكبر الأثر فى حياة رابعة – كما سنبين فيما بعد . اسم عتبة الحقيقى – عتبة بن أبان بن صمعة ، وكان عربيًّا شريفاً من عوذ [١] ولكنه سمى بالغلام– ويقول تلميذه رباح بن عمرو القيسى «كان نصفاً من الرجال ، ولكنا كنا نسميه الغلام ، لأنه كان فى العبادة غلام رهان » وقد اشتهر عتبة الغلام بالحزن ، حتى سئل صديقه عبد الواحد بن زيد « بمن تشبه حزن هذا الغلام » فقال « بحزن الحسن » [٢] وكان عتبة من « الخائفين » وانتشرت قصص خوفه وبكائه فى كتب الطبقات . وقد أورد لنا أبو نعيم الأخبار الطويلة عن حزنه وزهده ، بحيث اعتبر « من نساك البصرة » ومن أصحاب الفلق – وفلق الخبز هى الكسرة ، وكان يتعشى كل ليلة بفلقة ويتسحر بأخرى .وكان يصوم الدهر ويأوى السواحل والجبابين وكان وهو العربى الشريف – كما قلنا – يقوم على خدمة العباد ، كما كان يمتنع عن الطعام إذا استمع إلى واعظ يذكره بدار الخلود . ويذكر سلم العبادانى – أحد عباد عبادان – أن صالحا المرى وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد وسلما الأسوارى قدموا عليه بساحل عبادان وأعد لهم طعاماً ، فلما أقبلوا ، إذ ببعض أولئك المطوعة ، تمر على ساحل البحر رافعاً صوته يترنم .

ويلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غبها غير واقع

فصاح عتبة صيحة وسقط مغشيًّا عليه ، وبكى القوم ، ورفع الطعام ، وماذاق القوم منه شيئاً [٣] .

أما ملبسه ، فكان يلبس الشعر تحت ثيابه ، فإذا كان يوم جمعة ، ألقاه ، ولبس من صالح الثياب . أى أن الرجل كان يسّن سنة الإسلام فى التزين للجماعة . . . . . وكان العباد يذكرون

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٢٣٢ وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ٢٨٢ .
(٢) نفس المصدر : ج ٦ ص ٢٢٦ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

عنه وعن صاحبه يحيى الواسطى . . . . . « كأنما ربتهم الأنبياء »(١) .

قضى عتبة الغلام إذن شطراً من حياته منصهراً فى الحزن والبكاء . ولكن هذا العابد الذى أفنى عمره فى هذه الأحزان ، وهذا البكاء ، ما يلبث أن يتقلب فى نيران الحب الإلهى .

وقد كان فى إحدى سياحاته فى بادية البصرة ، فرأى خباء أعراب قد زرعوا ، وإذا خيمة فى وسط مزرعة ناضرة ، وفى الخيمة امرأة عليها جبة صوف ، مكتوب عليها لا تباع ولا تشترى فكلمها ، فلم ترد عليه . وبينما هو مول عنها سمعها تقول :

زهد الزاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه ... فقضى ليلهم وهم ساهرونا
حيرتهم محبة الله حتى ... علم الناس أن فيهم جنونا
هم ألبا ذوو عقول ولكن ... قد شجاهم جميع ما يعرفونا

فدنا منها وسألها لمن الزرع . فقالت : لنا ، إن سلم . فتركها ومضى . . . ثم نزل المطر . . . فأفسد الزرع فعاد إليها فرآها تقول « والذى أسكن قلبى من طرف صفاء صورته ، محبته ، إن قلبى ليوقن منك بالرضا » . ويذكر هو نفسه أنه عاد إلى البصرة – يتأمل كلامها ، وقد هيج فيه الشوق (٢) . فرأى أن الدواء هو الداء ، ما دام فى مقام الرضا .

وتساوى عنده عذاب الله ورحمته . . . إذا كان الله هو المحب الأسمى فينادى « إن تعذبنى فإنى لك محب . . . وإن ترحمنى فإنى لك محب » . . . ويرفع رأسه الليالى الطوال « سيدى إن تعذبنى فإنى أحبك ، وإن تعف عنى فإنى أحبك » وتتساوى عنده أحداث الحياة ، وتقلباتها وهو فى مقام الحب « من سكن حبه قلبه ، فلم يجد حرًّا ولا برداً » ولكنه يتذكر يوم العرض على الله فيقول « قطع ذكر يوم العرض على الله أوصال المحبين . . . تراك مولاى تعذب محبيك ، وأنت الحى الكريم » ويعلم أن طريق المحبة طويل . . . فيقول « سبحان جبار السماء ، إن المحب لفى عناء » ثم يقرن المحبة بالمعرفة « من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومن أكرمه أسكنه فى جواره ، ومن أسكنه جواره فطوباه وطوباه ، وطوباه وطوباه » ولم يعد يخشى الآخرة فكان يقول إنها يوم الفرح الأكبر

---

(١) نفس المصدر : ج ٦ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣٤ ، ٣٥ .

« العرس فى الدار الآخرة [١] » وقد كان يخشى من قبل الدار الآخرة ويتمنى أن يحشر بين حواصل الطير وبطون السباع .

وكان عتبة يعيش دائماً فى حال الصعق ، يلقى بالخاطرات والواردات التى ترد عليه ، ثم يغشى عليه . . . وتصدر عنه الكرامات المتعددة ، . . . وقد ترك أثره الكبير فى جيل من العباد والزهاد والصوفية . . . بل كان مخلد بن الحسن ، وكان قد صحب إبراهيم بن أدهم وعتبة الغلام [٢] يفضل عتبة على إبراهيم بن أدهم . وقد مات عتبة شهيداً فى قتال الروم بالشام (عام ١٧٧هـ) فحقق بجانب « الولاية » معنى من أكبر المعانى وهو « الشهادة » فى سبيل الله .

٣- يحيى البكاء ، انتهاء النار :

كان عتبة الغلام لا يفارق صديقه وصاحبه يحيى الواسطى . ونحن نتساءل : هل يحيى الواسطى هذا هو يحيى البكاء ، وقد رأينا يحيى البكاء هذا يظهر فى حياة مالك بن دينار ، ورأينا كيف كره مالك بن دينار نسبة البكاء إليه . وقد قيل إن يحيى البكاء هذا هو يحيى بن أبى خليد بن سليم ويحيى بن مسلم . لكن يحيى البكاء توفى عام (١٣٠ هـ) [٣] - بينما توفى عتبة الغلام (عام ١٧٠ هـ) . فلا يعقل إذن أن يكون يحيى البكاء هو يحيى الواسطى الذى صاحب عتبة مدة طويلة من الزمان . ويمدنا الذهبى بمعلومات عن يحيى الواسطى هذا - فهو يحيى بن سليم أو ابن أبى سليم - أبو بلج الفزارى الواسطى . . . ويذكرون عنه « كان يذكر الله كثيراً » وكان فيه شيعية ويدل على هذا روايته عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس أن النبى أمر بسد الأبواب إلا باب على بن أبى طالب . غير أن أهم ما ألقى به يحيى الواسطى فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية هو روايته للحديث « ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد »[٤] ولهذا الحديث أهمية كبرى - سواء صح أو لم يصح - فى تطور الحياة الفلسفية الحقيقية عند المسلمين . إننا نعلم أن أبا الهذيل العلاف المعتزلى قد اتخذ هذا الحديث سنداً فى نظريته عن حدوث الحركة وفنائها ، فأبدع لنا نظرية فى فناء الخلدين ، فناء الجنة والنار ، وتوقف حركاتهما . أما فى نطاق الروح ، فإن انتهاء النار وخفقان أبوابها ، وهجرانها . . . إنما هو دلالة على العفو الإلهى ، والمحبة الإلهية ، التى تشمل العصاة جميعاً . . . وسيأمل الصوفية - فيما بعد - فى هذا العفو الإلهى ، رمز المحبة الإلهية ،

---

(١) نفس المصدر : ج ٦ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٣٧ .

(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٤ ص ٣٨٢ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٤ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

الذى سيتخلل العذاب الإلهى ، ويحل محله ، ومن العجب أن ابن تيمية – مفكر السلف والحنبلى المتشدد ، آمن أيضاً بهذا الحديث . . . وأعلن فى نظريته فى الحب الإلهى ، أن النار ستخلو من ساكنيها آخر الأمر ، وتعم المحبة الإلهية – أهل الخلدين جميعاً . وفى هذا دليل واضح على أن نظرية الحب الإلهى أصيلة فى الإسلام ، تستند على النص أولاً ، وتحاول أن تتعمق فيه ، وتستخرج منه نظريات متكاملة مع روحه . ثم تبحث فى التراث القديم ، عن خطرات ولمحات تؤيده ، ثم تنتهى إلى صورة ممتزجة فيها كل النظريات . وسنلمس فى الفصل التالى نظرية الحب الإلهى البحت فى صورته الأولى فى القرن الثانى فى مدرسة البصرة .

الفصل السابع

نظرية الحب الإلهى البحت

فى القرن الثانى الهجرى

قد رأينا فى الفصول السابقة نظرية فى المحبة الإلهية أو لمحات فيها . بدأت فى القرن الأول وتطورت فى القرن الثانى بين هؤلاء الخائفين من تلاميذ الحسن . وازدادت لمحات الحب شيئاً فشيئاً فى قلوب العابدين . وكان عبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام ويحيى الواسطى ممثلين لهذا الاتجاه الجديد . تخلل الحب الإلهى أحزانهم . ورأى هؤلاء جميعاً بين ضباب الدموع ، البهاء الإلهى ، سبحات الوجه الجميل الأقدس ، فأحبوه ونظروا إليه فى بهر وخشوع . ولكن الخوف بعدما كان يتملكهم ، لم يعرف واحد منهم اطمئنان القلب كاملا إلى الرضا ، ومناجاة الحبيب للمحبوب ، متخلصاً من أوضار الخوف ، وفزع النار . غير أن الحب – وهو جوهر التصوف – بدأ يتغلغل بعمق ونفاذ قلوب العباد . وقد أجمع المؤرخون على أن الفكرة اتضحت لدى مجموعة من العباد أطلق عليهم محدث مشهور هو أبو داود السجستانى المتوفى عام ٢٧٥ هـ ، لقب « الزنادقة » ونص أبى داود هو « رياح بن عمرو القيسى – رجل سوء هو وأبو حبيب وحيان الحريرى ورابعة رابعتهم فى الزندقة » . أما الذهبى فقال « زهاد المبتدعة [١] » ومن الواضح أن هؤلاء – ممن تكلموا عن الحب الإلهى – وامتزج عند البعض منهم بالخوف والأحزان ، وعند البعض الآخر كان حبًّا خالصاً . وقد عرفوا – منذ ذلك الوقت – فى أوساط المحدثين « بالزنادقة » أو زنادقة الزهاد أو زنادقة الصوفية . وسيأتى الملطى بعد ، ويعتبرهم فريقاً من الزنادقة ، ويسميهم « الروحانيين » وينسبهم إلى « العبدكية » نسبة إلى عبدك الصوفى – وهو شخصية كوفية متأخرة قليلاً عن هذا العصر ، ثم صنف من الروحانية على رأسهم رياح وكليب . وصنف ثالث من الروحانية على رأسهم ابن حيان [٢] . وسنعود إلى نصوص الملطى بعد قليل . ويضاف إلى هؤلاء أيضاً ممن تغنوا بالحب الإلهى – حبيب العجمى ، وعبد الواحد بن زيد – وأبو العتاهية الشاعر [٣] . ولا شك أنه

---

(١) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) الملطى : التنبيه ص ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) الدكتور أبو العلا عفيفى : التصوف : الثورة الروحية فى الإسلام ص ٢٠٩ .

ينبغى أن نأخذ بحذر اتهامات المحدثين للصوفية ، كما ينبغى أن نفعل هذا أيضاً أمام موقف سلفى حشوى كالملطى ، يكتب عن زهاد أو عباد يتكلمون فى الحب الإلهى لأول مرة فى تاريخ الحياة الإسلامية .

وقد عرضنا لحياة حبيب العجمى ؛ وأفكاره ، ولم نجد فيها ظلا لزندقة ولا ابتداع . بل كان حبيب من الناحية السمعية ، محدثاً ممتازاً ، ولم تشبه شائبة ، اللهم إلا إذا كانت سياحاته مدخلاً لاتهامه بالزندقة ، وقد ذكر صاحب خلاصة الذهب المسبوك أنه خرج عما كان من ملكه وتعبد وساح [1] ، وكانت سنة رهبان الزنادقة الهنود – وقد تكلمنا عنهم من قبل – كما كان أيضاً لتعبيره عن الحب الإلهى . وهو فارسى الأصل ، وصل له بنظرية الحب فى التراث المانوى ، أو بمعنى أدق فى التراث المندائى ، وكانت المندائية حول البصرة والكوفة . ألسنا فى هذا نحمل الرجل فوق ما يحتمل ونضمن كلماته وتعبيراته ما ليس فيها .

أما عبد الواحد بن زيد (المتوفى عام ١٧٧ هـ) ، فقد رأيناه واعظاً ، تنطلق منه شرارات الموعظة ، مخوفاً بالنار ، ثم ينكفئ على خوفه الليالى الطوال ويعلن فى ثنايا صرخات مواعظه كلمات ذات معدن جوهرى – فى الحب الإلهى – فهل تأثر بالمندائية من ناحية ، وبالمسيحية من ناحية ، وبخاصة أنه كان يتردد أحياناً على الأديرة ، حقًّا ، إنه هو وغيره من العباد قد ترددوا على الأديرة وخاطبوا الرهبان – فى صورة تمثيلية – ذكرها المؤرخون . ولكنهم كانوا ينأون عن كل ما يناهض قرآنهم وحديثهم . فإذا ذكر القرآن النار وعذابها ، وذكر الإنجيل هذا ، فلا بأس أن يأخذوا منه أيضاً ، وإذا ذكر القرآن المحبة الإلهية ، وأن الله يحب خلقه ، وخلقه يبادلونه الحب ، فلا بأس أن يأخذوا نفس هذه الفكرة من الإنجيل . كان القرآن – كما قلت – يردد لهم دائماً أنه إنما أتى مصدقاً للتوراة والإنجيل الحقيقيين ، كان اختلافهم مع المسيحية فى لاهوتها ، وإنما اتفقت الطرق فى غير ذلك اللهم إلا إذا خالف الطريق المسيحى حكماً قرآنياً أو سنة مؤكدة . ولست أنكر أبداً أن يكون عبد الواحد بن زيد قد أعجب بطريقة هؤلاء الرهبان ، تزهدهم وتعبدهم وانقطاعهم لله ، ولعل هذا مما دعا بعض أصحابه لبناء « دويرة » فى البصرة . وقد أرخ لنا هذا ابن تيمية حين يقول « وأول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن . وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ، ما لم يكن فى سائر الأمصار . ولهذا كان يقال فقه كوفى ، وعباد بصرية » ولم يهاجم ابن تيمية عبد الواحد بن زيد ولا أصحابه . إنه يكرر أن الأمور الصوفية التى فيها زيادة فى العبادة والأحوال الصوفية قد انبثقت من البصرة ، ويعرض لافتراق الناس ، أى افتراق علماء المسلمين

(١) عبد الواحد سبط الأربلى : خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك ص ٣١ .

فى أمر هؤلاء البصريين الذين زادوا فى أحوال الزهد والورع والعبادة أكثر مما فعل الصحابة . فالبعض يؤيدهم ، والبعض ينكر عليهم . ثم يضع – وهو الحنبلى المتشدد رأيه « والحقيقة أنهم فى هذه العبادات والأحوال مجتهدون ، كما أن جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدون فى مسائل القضاء والإمارة (١) » . فكأن ابن تيمية إذن لم ير فى منهج عبد الواحد بن زيد وأصحابه خروجاً على السنة ، كما فعل أبو داود السجستانى من قبله حين دعا هؤلاء « بزنادقة الزهاد » أوكما فعل تلميذه الذهبى من بعده حين دعاهم « بالزهاد المبتدعة » . بل إنه يراهم مجتهدين .

* * *

١– رياح بن عمرو القيسى ونظرية الخلة :

ولقد كان أول هؤلاء الذين نسبوا للزنادقة وأكثرهم ذكرا – هو أبو المهاجر رياح بن عمرو القيسى (المتوفى عام ١٧٧هـ) وقد ذكر ابن تيمية أنه من أصحاب الحسن البصرى ، ولعله عرف الحسن وتردد عليه وهو حدث صغير . ولكن ارتبطت حياة رياح بن عمرو بتلامذة الحسن ، كما كان من أصدق رجال عبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وواعظ وقاص كبير أيضاً من حلقة الحسن ، هو شميط بن عجلان . بل يكاد يكون رياح من حاملى أقوال شميط (٢) .

وقد أجمعت طبقات الصوفية على كون رياح أيضاً من الخائفين يتردد على الجبانات ، ويقضى الليالى الطوال فى التعبد وينشج بالبكاء ويصيح « إلى كم يا ليل – يا نهار تحطان من أجلى ، وأنا غافل عما يراد بى – أنا لله – أنا لله » وقد ذكر هو نفسه أن له نيفا وأربعين سنة قد استغفر لكل ذنب مائة ألف مرة ، وكان يأكل قليلا ، ويسأله الناس ، فيجيب « كيف أشبع فى أيام الدنيا ، وشجرة الزقوم طعام الأثيم بين يدى (٣) » أى أن رياحاً اعتبر الحلال « إثماً » . إنه طعام « الآثمين » يغذبهم به فى هذه الدنيا ، كما يعذبهم به فى الآخرة . . . وهنا مدخل لرجال الحديث فيما بعد – لاتهامه « بالابتداع » « وبالزندقة » كما أنه يردد قول مالك بن دينار بأن الرجل لا يبلغ منزلة الصديقين ، حتى يترك زوجته كأرملة . ويأوى إلى مزابل الكلاب . . . ويراه الناس فى ريف البصرة . . . يأكل خبزاً وملحاً – فيدهشون ويسألونه فيجيب « . . . . حتى نأكل الشواء ، والعرس ، فى الدار الآخرة (٤) » فرياح إذن

---

(١) إبن تيمية : الصوفية والفقراء ٣ ، ٤ ، ١٢ ، ١٣ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ١٢٥ – ١٣٣ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٤ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٧٨ – ٢٧٩ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٤ .

من الخائفين ، ومن البكائين . وتقول مخنة أو محة – وهى إحدى العابدات رأيت رياح بن عمرو القيسى ليلة خلف المقام ، فذهبت ، فقمت خلفه حتى أزحفت ، ثم اضطجعت وهو قائم ، فأتا أنظر إليه ، فقلت بصوت حزين : « سبقنى العابدون ، وبقيت وحدى . والهف نفساه » فشهق رياح ، وانكب على وجهه ، مغشيًّا عليه ، وامتلأ فمه رملاً ، فما زال كذلك ، حتى أصبحنا . ثم أفاق[1] كان الرجل إذن يعيش فى حزن دائم مقيم ، ولعله كان يستمع إلى أخيه عوين بن عمرو القيسى وكان أيضاً من الزهاد يروى عن رسول الله : « اقرءوا القرآن بحزن فإنه نزل بالحزن[2] » . ولم يعش رياح القيسى عزبا ، ولم ينأ عن الزواج ، ولم يكن يترك زوجته كأرملة ويأوى إلى مزابل الكلاب . إن ابن الجوزى يذكر أن شميط بن عجلان القاص زوجه امرأة عابدة فبنى بها ، ولما أصبح قامت إلى عجينها ، ورآها هو تعمل فطلب منها أن تبحث عن خادم ، فقالت « إنما تزوجت رياحا القيسى ، ولم أرنى تزوجت جباراً عنيداً » ولما أقبل الليل ، نام ، ليختبرها ، فقامت للعبادة ربع الليل ، ثم نادته : قم ياريا ح . فقال : أقوم . ولم يقم . ثم قامت الربع الآخر ونادته : قم ياريا ح . فقال أقوم : ولم يقم أيضاً . فقامت الربع الأخير ثم نادته فقالت : قم ياريا ح . فقال أقوم : فقالت . مضى الليل وعسكر المحسنون . وأنت نائم . . . ليت شعرى من غرنى بك ياريا ح . . . وقامت الربع الباقى حتى الصباح ، بينما كان هو لا يزال نائماً .

وكانت امرأة رياح تنظر إلى السماء ، وتشهق ، ثم يغمى عليها ، وإذا اغتم لأمر من أمور الدنيا . أخذت شعرة من الشعيرات وقالت : أراك تغتم لأمر الدنيا ، والدنيا أهون على من هذه » وكان يذكر هو أنه كانت إذا صلت العشاء الآخرة ، تطيبت ولبست أحسن ثيابها . ثم تأتيه فتقول « لك حاجة » فإن قال « نعم » كانت معه ، وإن قال « لا » قامت فنزعت ثيابها ، ثم صفت بين قدميها ، حتى تصبح[3] . وأود أن أنتهى من هذا كله أن رياحاً القيسى لم يخرج عن سنة الزواج ، ولم يتزهد تزهد الرهبان النصارى ، أو رهبان المانوية والمنداثية – نساك الفرس ، ولم يحى « كالحكيم الهندى العارى » بل إنه لم يعش فى دويرة الصوفية التى قيل إن أصحاب عبد الواحد بن زيد قد بنوها . وكان له « بيت » يأوى إليه . ويتبين لنا هذا من رواية الحارث ابن سعيد من زهاد البصرة عن بكاء رياح بن قيس ، يقول : أخذ بيدى رياح القيسى يوماً . فقال : هلم يا أبا محمد حتى نبكى على ممر الساعات ونحن على هذه الحال » وخرجت معه إلى المقابر . فلما نظر إلى القبور ، صرخ ، ثم خر مغشيًّا عليه . فجلست والله عند رأسه أبكى . فأفاق وسألنى : ما يبكيك . قلت : لما أرى بك قال : لنفسك فابك . ثم صاح :

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ٦ ص ١٩٢ – ١٩٣ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ، ٤ ص ١٨ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٩ و ٣٠ .

وانفساه ، وانفساه . ثم غشى عليه . فرحمته والله مما نزل به . فلم أزل عند رأسه حتى أفاق . فوثب وهو يقول : تلك إذاً كرة خاسرة . تلك إذاً كرة خاسرة . ومضى على وجهه ، وأنا أتبعه لا يكلمنى . حتى انتهى إلى منزله ، فدخل وصفق بابه ورجعت إلى أهلى »(١) . كان للرجل إذن منزل يلجأ إليه ، ويغلق بابه دون الناس ، وكان له زوجة ، وكان يستمتع بزوجته ، كما كانت سنة عباد المسلمين ؛ كما كانت له خلواته مع الله . وقد ذكر هو عن أحد العباد « ثور بن يزيد » أنه قرأ فى التوراة أن عيسى عليه السلام قال : يا معشر الحواريين – كلموا الله كثيراً – وكلموا الناس قليلاً . قالوا : كيف نكلم الله كثيراً . قال : إخلوا بمناجاته – اخلوا بدعائه » وكان يكره ذكر الدنيا – متشبهاً بالحسن البصرى نفسه نقلاً عن العابد الكبير حسان بن أبى حسان وقد أكثر رياح من الرواية عنه « والله ما سمعت الحسن ذاكراً الدنيا فى مجلسه قط » وأخيراً نراه قد اتخذ غلا من حديد ، فكان إذا جنه الليل ، وضعه فى عنقه ، وأخذ يبكى ويتضرع حتى يصبح الصباح (٢) .

ونعود إلى لمحاته الصوفية . إنه كان يفتش عن « نور الحكمة » فكان يقول « كما لا تنظر الأبصار إلى شعاع الشمس ، كذلك لا تنظر قلوب محبى الدنيا إلى نور الحكمة أبدا » (٣) ولا يمكن أبداً التعسف فى التفسير ، فنقول إن ذكره لكلمة النور يصله بالمانوية أو المندائية ، إنما يقصد بنور الحكمة « تنقية القلب من حب الدنيا ، حتى تمتلئ بذكر الله » ويفسرها قوله « عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك » ، فنور الحكمة إذن هى امتلاء القلب بذكر الله ، بحيث لا تأنس بغير الله (٤).

ونحن نتساءل : إنه يذكر كلمة الأنس بالله ، ولا يذكر كلمة الحب ، وقد ذكرها العدد الكبير من العباد من قبله ، وستذكرها معاصرته وصديقته – رابعة العدوية . فهل تحرج عن ذكرها متابعة لمالك ابن دينار أستاذه الكبير ، وابن دينار – فى بعض الروايات – كان ينهى عن ذكر كلمة الحب (٥) .

عجباً . إننا نرى الكلمة تظهر فى محادثة له مع رابعة العدوية . فقد رأته يقبل صبيًّا من أهله ويضمه إليه فقالت فى دهشة : أتحبه ؟ قال نعم . قالت . ماكنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره ، تبارك اسمه . فصرخ رياح ، وخر مغشيًّا عليه . ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٣ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٥ – ١٩٦ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٨٠ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٤ – ١٩٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٧٩ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٤ – ١٩٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٧٩ .

(٥) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٠ .

يقول « رحمة منه تعالى ذكرها ، ألقاها فى قلوب العباد للأطفال [١] فالرجل إذن لا يعلن حبه لله ، وهو محب ، بل السنة أهم وأسمى . أن يمسح على رؤوس الأطفال ويقبلهم ويداعبهم . وحين يسأله الأبرد بن ضرار من عباد بنى سعد بالبصرة « يا رياح . هل طالت بك الليالى والأيام ؟ » فقال له بم ؟ قال : بالشوق إلى الله فسكت ولم يرد ، وأخذ صديقه الأبرد وذهب به إلى رابعة . فقال لها : تلثمى بثوبك ، واسترى بجهدك ، فقد سألنى الأبرد مسألة ، لم أقل فيها شيئاً فقالت : ما سألك ؟ فقال لها : قال لى ، طالت بك الأيام والليالى بالشوق إلى لقاء الله . فقالت رابعة : ماذا قلت ؟ قال : لم أقل نعم فأكذب . ولم أقل : لا فأهجن نفسى . فسمع رياح تخريق قميصها من وراء ثوبها – وهى تقول لكنى نعم [٢] . وبعد : فهل كان يتحرج عن ذكر الشوق إلى لقاء الله ، حتى لا يتمنى الموت . اتباعاً للسنة . أم كان يريد أن تعبر تلميذته العابدة ، المنصهرة فى حب الله عن آرائه هو . أم كان يريد أن يرفع مكانة « رابعة » فى البصرة فتكون قبلة العابدين والمحبين يلجأون إليها ، ويستمدون منها الحكمة – وهو فى الوقت نفسه – صاحب الحكمة . ثم ماذا كانت علاقته برابعة – هل كانت تلميذته أم زميلته فى العبادة . وقد كانت من رواد حلقات مالك بن دينار – وعبد الواحد بن زيد ، أم كانت زوجته . ستعود إلى فحص هذا كله حين نبحث فى حياة رابعة وحبها الإلهى .

هذا كل ما عرف عن رياح بن عمرو القيسى فى كتب التصوف . ولكن الملطى ، ويكاد يكون أقدم مؤرخ للعقائد الإسلامية يذكر رياحاً وكليباً فى صنف من الروحانية أو الفكرية المنتمين إلى الزندقة ، يؤمنون « بالخلة » وهى نوع من المحبة مستمدة من قصة إبراهيم « خليل الله » ويرى الملطى أن هذه الخلة انتهت بهم إلى نوع من الإباحية . يشرح الملطى أولاً فكرة الروحانية فيقول « وإنما سموا الروحانية ، لأنهم زعموا أن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السماء ، وبها يعاينون الجنان أو يجامعون الحور العين ، وتسرح فى الجنة » . ولعل الملطى هنا يشير إلى ما ذكره المؤرخون عن الزهاد من أنهم كانوا يحلمون برؤية الحور العين ، ودعوتهن العبّاد إلى الدار الآخرة . ثم يشرح معنى الفكرية – ويقول : إنهم أيضاً سموا بها « لأنهم يتفكرون – زعموا فى هذا حتى يصيرون إليه ، فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ، ومنتهى إرادتهم ، ينظرون بأرواحهم فى تلك الفكرة » فى هذه الغاية ، فيتلذذون بمخاطبة الله لهم ، ومصافحته إياهم ، ونظرهم إليه ، زعموا أنهم يتمتعون بمجامعة الحور ، ومفاكهة الأبكار على الأرائك متكئين ، ويسعى عليهم الولدان المخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب ، وطرائف الثمار . ولو كانت الفكرة فى ذنوبهم الندم عليها . والتوبة منها والاستغفار ، لكان مستقيماً . وأما الفكرة فبوبها لهم

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٣ .

الشيطان ، لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة ، إلا من سار إليها يوم القيامة ، وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات » وفى الحقيقة إن الملطى هنا ، كما هو عادته يخلط خلطاً كاملاً ، وإن كان يمدنا بمعلومات طريفة عن طائفة الروحانية والفكرية، إن هؤلاء الروحانية – إن كانوا هم عباد البصرة أو الكوفة ، كانت أرواحهم تنظر إلى ملكوت الله ، وتتشوف إلى الجنة ، بما فيها من متاع حسى روحى ، إن هؤلاء الفكرية – إن كانوا هم عباد البصرة أو الكوفة – جعلوا التفكر فى الله غاية عبادتهم ، وناجوا الله فى خلال تفكرهم ، وتشوقوا للجنة ، وما فيها من حور عين . . . إلخ . وكان من المحتم أن تتراءى عليهم رؤى الآخرة ومشاهدها فيذكرونها ، عوضاً عن حياة الحرمان التى فرضوها على أنفسهم ، والجوع الذى مارسوه والصوم الذى تابعوه [1] وكان العابد منهم يصيح «العرس يوم القيامة ، العرس الحقيقى الدائم ، لا الحياة القصيرة الزائلة المتوهمة التى يحياها البشر فى الدنيا الزائفة . وكان منتهى تفكرهم هو الندم على الذنوب والاستغفار لها .

وأين هو موضع رياح وكليب فى هذه الفرقة ، فى نظر الملطى ، إنه يعتبرهما رأس طائفة من الروحانية نادت بفكرة الحب الإلهى : إن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم . إلى أن يسيطر عليهم هذا الحب تماماً «فإذا كان كذلك ، كانوا عنده بهذه المنزلة» أى إذا سيطر عليهم الحب . وغلب عليهم . فإن الله يبادلهم حبًّا بحب (يحبهم ويحبونه) فتكون العلاقة بينهم وبين الله – علاقة الخلة . فإذا اتخذهم الله أخلاء ، والخلة متبادلة . أباح لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها «على وجه الخلة التى بينهم وبين الله . لا على وجه الحلال . كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه» ثم يقرر الملطى أن «رياحاً وكليباً كانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان الناس إليها» . ثم يكرر الملطى هذا المعنى أيضاً فى موضع آخر – فيقول «ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا إشغال بالقلوب وتعظيم للدنيا ومحبة لها ولما عظمت الدنيا عندهم تركوا طيب طعامها ولذيذ شرابها ، ولين لباسها ، وطيب رائحتها ، فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها وكان من إهانتها مواتاة الشهوات عند اعتراضها . حتى لا يشتغل القلب بذكرها . ويعظم عنده ما ترك منها . ورياح وكليب كانا يقولان هذه المقالة [2] » .

يرى الملطى إذن أن رياحاً وكليبا نادا بالخلة ، وإذا تمت الخلة ، ارتفعت التكاليف ، وأحل للخليل ما فى ملك خليله . ولم يكن الملطى – كما قلت – مؤرخاً دقيقاً للحياة الفكرية ، والروحية الإسلامية ، وكتابه خليط مشوه من الحقائق والأكاذيب والتخريجات الصحيحة والفاسدة . إن من المرجح أن رياحاً وكليبًا نادا بالخلة وأبرزا فيها فكرة المحبة أو ضمناها فيها . ولكن لم يكن رياح أو كليب

(١) انظر رؤية مطهر السعدى مع الجوار المزينات – وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٢) الملطى : التنبيه . . . ص ٩١ – ٩٣ .

ممن يدعوان إلى نبذ التكاليف ، كان فى البصرة كل شيء فعلاً ، وكان هناك من يدعو إلى أن إهانة الدنيا إنما يتم بمواتاة الشهوات ، ولكن هذا مذهب إباحى لم يعرف عن رباح ولا عن كليب ، وإنما انتشر فى مجامع الزنادقة فى البصرة ، وانتقل منها إلى الكوفة . وكان من السهولة بمكان أن يعتنقه رباح وأن يترك حزنه وآلامه ودموعه ، ولكنه لم يفعل هذا . ولم نر مصدراً واحداً يؤيد دعوى الملطى ، ويتفق معه ، اللهم إلا أبو داود السجستانى . ولكن الذهبى ، وكان مؤرخ الإسلام العظيم يقول عنه فى سيرة أعلام النبلاء « رباح بن عمرو القيسى ، العابد أبو المهاصر . بصرى زاهد ، متأله ، كبير القدر» ويذكر الذهبى أن رباحاً سمع مالك بن دينار وحسان بن أبى حسان وطائفة « وهو قليل الحديث ، وكثير الخشية والمراقبة » ثم يذكر بعضاً من أخباره [١] ثم يعود إليه فى تاريخ الإسلام ويصفه بأنه «كان خاشعاً خائفاً بكاء » [٢] .

وبعد : فما هى مصادر فكرة الخلة التى نادى بها . إن إشارة أبى داود السجستانى والملطى إلى اعتباره من الزنادقة يومئ بأخذه عن المانوية أو المنداثية . يقول المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى « ولا شك أن ظهور الكلام فى الحب الإلهى فى بيئة البصرة فى صورة قوية ناضجة له مغزاه . وإن كنا لا نعرف الكثير عن الظروف التى أحاطت برجال مدرستها . ولكنا نعرف على الأقل أن منهم من كان متأثراً بالفلسفة المانوية التى عرفت بنظرية خاصة فى الحب الإلهى خلاصتها أن أرواح الأبرار ذرات نورانية انبثقت من ينبوع النور الأعظم ، فهى دائماً تنجذب إليه ، وتحن إلى العودة إليه ، وتحاول جاهدة الفرار من هياكلها المظلمة ، فغايتها التحرر من ربقة عبوديتها ، والانطلاق من سجنها الأرضى [٣] » .

ولكن هل هذا هو الوضع الحقيقى للمسألة . إن فكرة الخلة وفكرة الحب نشأت لدى هؤلاء العباد الأول نشأة إسلامية . استلأ القرآن – كما نعلم – بأسماء الجمال التى تنسب إلى الله ، بجانب أسماء الجلال ، بأسماء المحبة التى تنسب إلى الله بجانب أسماء الجبروت ، وكان من أهم هذه الأسماء (الودود والغفور والرحيم والرؤوف) فالمصدر قرآنى أولاً . وحين اتخذ رباح بن قيس فكرة أو نظرية عن المحبة ، وضع لها اسم الخلة ، قياساً على خلة إبراهيم الخليل ، فاتخذ قصة إبراهيم ، نبراسه فى وضع أسس نظريته ولإبراهيم فى حياة العباد المسلمين والصوفية من بعدهم مكان لا يدانى . هو صاحب قصة

---

(١) نصوص منشورة من مخطوط الذهبى سير الأعلام النبلاء فى كتاب شهيدة العشق الإلهى – رابعة العدوية للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ١٨٥ .

(٢) نصوص منشورة من كتاب تاريخ الإسلام للذهبى فى نفس الكتاب السابق ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(٣) المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى ص ٢٠٩ .

الذبيح ، وعنها نشأت فكرة سابئة أو صابئ الله . وكانوا جميعاً عباد البصرة يعتبرون أنفسهم سابئات الله ، ويضعون القيد فى أعناقهم ، فى انتظار للذبح ، للموت الحقيقى . وكان إبراهيم الخليل أول من ألقى فى نار الدنيا ، وأنقذه الله منها ، حين دعاه هو وحده . وكان إبراهيم الخليل أول من تفكر فى خلق الله ، بل أول من أراد اطمئنان القلب – ورد على الله حين سأله (أو لم تؤمن) فقال (بلى ولكن ليطمئن قلبى) فالخلة إذن على مثال إسلامى قرآنى ، أما أن يكون خالط هذا الحب عقيدة مانوية فلا نجد أثراً لهذا . حقًّا . كانت العقيدة المندائية ، لا المانوية ، منتشرة بجوار – البصرة والكوفة . وكانت المندائية تقول : إن فى أعلى عليين – تستقر روح الحياة – الإله الأعظم ، ملك النور محاطاً بالكائنات القدسية . الملائكة ، وإن روح الإنسان روح آدم والماندائيين من أولاده قد استمدت من ملك مملكة السماء هذه . وفى أسفل سافلين ، كانت مملكة الظلام ، بمياهها السوداء ، وأرضها الصلبة . . وجاء الماندائيون إلى هذا العالم ، وهم غرباء فيه . تحاول الأرواح الشريرة أن تجتذبهم . ولكن المندائى الصالح يقاوم ويقاوم ، مغتسلاً فى النهر ، مطهراً آثامه ، محبًّا لمبدأه الأولى . فينتظر المخلص . ساعة الخلاص . ليعود إلى مملكة السماء . إلى روح الحياة (١) .

ولا شك أن نظرية المندائية متأثرة بأديان قبلها . ثم وضعت فى هذه الأسطورة . ولكن هل أخذ منها عباد الإسلام الأوائل . إن القول بأن البعض من هؤلاء كان فارسيًّا – وقد عرف تراث قومه الأوائل أو أثر فيه – بعيد تماماً عن المنهج العلمى – نقد النص داخليًّا وخارجيًّا . عاش الأعاجم المتسلمة من رواد الحياة الروحية الأولى الذين دخلوا الإسلام عن يقين ، حياة إسلامية خالصة . إن كان ثمت مشابهة بين حب الإله . كما صوره الإسلام . وحب المبدأ الأول ملك النور . مبدأ الحياة – فى المندائية . فهى مشابهة فى عنوان الموضوع ، هذا حب وذاك حب . وليس فى الأمر أكثر من ذلك .

ثم نأتى إلى المسيحية . هل هى أثرت أيضاً فى نظرية الخلة ، كما أثرت فى نظرية المحبة عامة كما تقول مارجريت سميث فى كل فقرة من فقرات كتابها ، إن كان قد حدث تأثير أو اتصال ، فإن تفسير الأمر – كما قلت – أن الدينين ينبعان هنا من نبع واحد ويصدران هنا عن فكر واحد . وسأعود إلى فحص نظرية الخلة – على صورة أوسع – حين أتكلم عن رابعة العدوية :

* * *

(١) . Encyclopedia of Religion and Echics,

وأنظر الدكتور جاد عبد العال : حركات الشيعة الغلاة ص ٧ – ١٨ .

٢ – أصحاب رباح بن عمرو القيسى ، زنادقة الصوفية :

ونعود إلى تلك الأسماء التى ذكرها المؤرخون عن مدرسة الخلة . فنجد اسم كليب – وهو كلاب بن جرى – اختلط أيضاً عنده « شدة الخوف وطرب الشوق [١] » . ويظهر كلاب فى مواقف كثيرة ، مع أصحابه من الخائفين يبكون خوفاً من النيران [٢] فهو أيضاً خائف بكاء ، يطرب شوقاً لمحبة الله ولقائه .

ثم نجد إسم ابن حيان : وقد ذكره داود السجستانى – كما رأينا – على أنه واحد من الزنادقة وأسماء بن حيان الحريرى . أما الملطى فيعتبره رأساً لفرقة من الروحانية ، تقرر أنه ينبغى على العباد أن يدخلوا فى مضمار الميدان أى ميدان التنسك والتزهد . حتى يبلغوا إلى غاية السبقة أى إلى غاية العبادة . وذلك من تصغير أنفسهم ، وحملها على المكروه . فإذا ما بلغ الإنسان نهاية الطريق تحلل من الواجبات وأعطى نفسه كل ما تشتهى وتتمنى « سقط عنه تضمير الميدان . واتبع نفسه ما اشتهت [٣] » . وكل ما بين أقوال ابن حيان من ناحية ورباح وكلاب من ناحية أخرى من خلاف وأنه لم يرد فى أقوال ابن حيان ذكر الخلة . وقد تتبعت اسم ابن حيان هذا ، فلم أجد له ذكراً فى كتب التصوف اللهم إلا إشارات عن « حيان الأسود [٤] » . وهو يروى عن عبد الواحد بن زيد قصة عن الحور العين – ولعل هذه القصص وأمثالها مما دعا الملطى إلى القول بأن هؤلاء العباد « من الروحانية » كانوا يدعون معاينة الحور العين ومجامعتهن فى هذه الحياة الدنيا » ثم يذكره الجاحظ فى الزهاد والنساك باسم حيان أبى الأسود (البيان ج ١ ص ٢٣٢) ويورده صاحب الحلية باسم حيان الأسود ويذكر قولاً له عن أحد العباد « عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً . بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلبها بذكر سواك بل عجبت للخليقة كيف أنست بسواك [٥] . غير أن صاحب كتاب مصارع العشاق يمدنا بنص هام عن حيان القيسى ، يقول حيان فيه « العباد مع الله تعالى على ثلاث منازل : منازل قوم ، يضن بهم عن البلاد (ولعلها البلاء) لئلا يسترق الجزع سرهم ، فتكون هذه حكمة ، أو يكون فى صدورهم حرج من قضائه ، وقوم يضن بهم عن مساكنة أهل المعاصى ، لئلا تغتم قلوبهم فمن أجل ذلك سلمت صدورهم للعالم ، وقوم صب عليهم البلاء صبًّا ، فما ازدادوا له إلا حبًّا » [٦] ، وليس فى

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٨٩ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٤٤ .
(٣) الملطى : التنبيه ص ٩٣ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٤٢ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ١٦٤ .
(٦) أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسن السراج : مصارع العشاق ص ١٤٤ .

هذا النص ما يدل على زندقة ، إنما هو تقسيم لمنازل العابدين إلى ثلاث : منزل هؤلاء الذين ضن الله لهم عن البلاء ، فلا ينزله بهم ، حتى لا ينزل بهم الحرج من بلائه ، هؤلاء خلاهم دون الابتلاء — بعون منه . ومنزل ثان — هو منزل هؤلاء الذين عصمهم عن مخالطة الخاطئين حتى لا تحزن قلوبهم . هؤلاء « سلمت صدورهم للعالم » وانبسطوا له . وأصحاب المنزلين من العابدين بلاشك ، ثم منزل هؤلاء المبتلين بكل أنواع البلايا ، ينزلها بهم من كل جانب ، ويتناولهم بكل المحن ، فما قدحت فيهم إلا محبة له ، هؤلاء استهلكوا فيه ، واستعذبوا حبه . وهؤلاء فى أعلى المنازل . وهذه صورة من صور الحب البحت .

٣- رابعة العدوية :

وإن الحديث عن صورة الحب البحت الذى انبثق فى البصرة لينقلنا إلى التكلم عن ممثلته الأولى فى صورته العارية ، أو فى صورته الأسطورية ، عن رابعة القيسية المشهورة برابعة العدوية (المتوفاة عام ١٨٥ هـ) .وقد قام بعض الباحثين والباحثات بعرض لحياة رابعة وآرائها ، غير أن كل هذه الأبحاث لم تصل إلى توضيح حياة وآراء رابعة فى إطارها الحقيقى ، وتقويم هذه الحياة وهذه الآراء تقويماً صحيحاً . قد يمزج بعض الباحثين بينها وبين رابعة بنت إسماعيل [1] ؛ وهى صوفية شامية متأخرة زماناً عن رابعة المشهورة . والبعض الآخر يبحث حياة رابعة العدوية الأسطورية . فيقوم بتحليل روحى لها ، فيزيد الأسطورة أسطورية ، ويخفى حقيقتها وراء العبارات المضخمة ، والتحليلات الروحية الحديثة ، والمواقف الوجودية بما فيها من استاتيكية وديناميكية والتى لم يعرفها هذا العصر المبكر . لقد أغنت هذه الأبحاث حياة رابعة وأثرت لنا جوانب كثيرة من آرائها ، ولكنها تنكبت رسم الصورة الصحيحة لها وما ألقت به فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية وتطورها .

إن لرابعة صورة حية فى عصرها ، تتضح فيها نزعات هذا العصر كله . وقد أثرت هذه الصورة فى رابعات متعددات ؛ تعاقبن فى أجيال المسلمين ، سرن على دربها كما سارت ، ووصلن إلى نفس النتائج ، وعبرن عن آمالهن وراء هذا العالم المحسوس فى نفس التعبيرات ، إن الهمسات الرقيقة التى انبثقت من رابعة قد صقلت الحياة الروحية الإسلامية فى هذا العصر ، وما بعد هذا العصر ، كان العباد الخائفون والبكاؤون يبكون ويصرخون ويقتحمون « حلقة التصوف » فى صرخات عنيفة ، وشطحات خوارة ، ومواعظ ضخمة رنانة ؛ أما هى فقد جعلت التعبد والتزهد والخوف — عبادة صامتة ، ودموعاً تسح على بساط الحضرة الإلهية ، تكون بحيرة ضافية رقراقة . وغسلت الدموع ،

(١) Margrette Smith : Early Mysticisimand Rabia the Mystic and her Fellow Saints in Islam.

الخطايا ، وكم كانت الخطايا متمكنة مترسخة فى أرض البصرة ، أرض رابعة الجميلة ، انبثق الحب فى رابعة ، فى نفسها الرقيقة الشفافة ، فأخذت تعانيه ، فأطلقت نفس التعبيرات ، التى أطلقها الرجال من معاصريها ، وبعض النساء من سابقيها ولكن فى صمت واطمئنان ، وبدون الدراما العنيفة ، اللهم إلا نادرًا ، لا نجد الشطح ولا الصعق ولا خلع العذار ، ولا يتردد فى جنبات المنزل الصوت العالى ، ولا تأوهات الشجن ولا صيحات النشيج .

لقد حطمت الناى الخشبى التى حملته من قبل فى حياتها الصاخبة الدنيوية ، وكسرت أوتاره . لتعود إلى الناى الربانى فى أعماقها إلى قلبها . وأنشدت على أوتاره الطبيعية . . . أنشودة الحب الإلهى وهى تنظر فى وله وبهر إلى بحيرة الدموع على البورى العتيق فى بيتها الهادى :

أحبك حبين حب الهوى　　　وحبًا لأنك أهل لذاكا

وبعد : فإن الغموض حقًا يشوب حياة رابعة الأولى – قبل تعبدها وانتمائها للعباد من البصرة . بل إن الغموض أيضاً يتناول اسم أبيها واسم أسرتها واسم الفخذ أو البطن أو القبيلة التى تنتمى إليها بالولاء . وقد ذكرها ابن خلكان فقال : « أم الخير بنت إسماعيل ، العدوية البصرية ، مولاة آل عتيك ، الصالحة المشهورة ، كانت من أعيان عصرها ، وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة [١] » . ولكن الجاحظ لا يذكر أبدًا نسبها إلى بنى عدى ، وإنما يشير إليها فى مواضع خمس بالقيسية . فيقول فى الموضع الأول فى ذكر النساك والزهاد من أهل البيان « ومن النساء – رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن أشيم وأم الدرداء » ومن العجب أنه يضعها قبل معاذة العدوية بل أم الدرداء[٢] ويقصد الجاحظ بالنساء هنا « نساء أهل السنة لأنه ما يلبث أن يذكر نساء الخوارج من الناسكات والزاهدات » البلحاء وغزالة وقطام وحمادة وكحيلة » ثم نساء الغالية أى الشيعة « ليلى الناعطية » والصدوف وهند » ثم يذكرها مرة ثانية فيقول قيل لرابعة القيسية : لو كلمنا رجال عشيرتك ، فاشتروا لك خادماً ، تكفيك مؤونة بيتك . فقالت والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسألها من لا يملكها[٣] . ويذكرها مرة ثالثة فيقول « وقلت لرابعة القيسية : هل عملت عملاً قط ترين أنه يقبل منك . قالت « إن كان كل شيء ، فخوفى من أن يرد على[٤] ثم ما يلبث أن يذكرها فى موضع رابع فى نساك البصرة وزهادها باسم رابعة القيسية [٥] » وفى موضع خامس فى كتاب الحيوان » فإن تهيأ مع

(١) إبن خلكن : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين – جـ ١ – ص ٢٣٢
(٣) الجاحظ : البيان . . ج ٣ ص ٧٢ .
(٤) نفس المصدر : ج ٣ ص ١٠١ .
(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٦ .

ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ومعاذة ورابعة القيسية ، والشجا الخارجية [١] والجاحظ – وكما لاحظ الدكتور بدوى بحق ، هو أقدم المؤرخين لرابعة ، بل أكثرهم أيضاً معرفة بالتراث البصرى . فرابعة إذن قيسية ، ومن المحتمل أن اسم العدوية قد نسب إليها ، من بنى عتيك أنفسهم ، سواء بانتساب بطن من بطون عدى إليهم ، أو أنهم كانوا أنفسهم عدويين . وإن اسمها الصحيح هذا ، رابعة القيسية يقودنا إلى طريق توبتها ، فحين اعتلج صوت العبادة فيها ، وتردد فى أعماقها نوازع الحيرة والاضطراب ، لجأت إلى القيسيين من العباد ، رياح القيسى وحيان القيسى لجأت إلى رجال عشيرتها الأقربين من العباد ، سواء أكانوا قيسيين بالدم أم بالولاء . فقادوها إلى طريق العبادة شيئاً فشيئاً ، وبدأت تتردد على كبار تلامذة الحسن الأحياء وبخاصة عبد الواحد بن زيد . ولا نعلم هل حضرت حلقات وعظه ، أم أن رياحاً كان يأخذ الشيخ الكبير إلى بيتها . ومن الثابت قطعاً أنه زارها كثيراً ويلاحظ أن أصدقاء رابعة من العباد أرادوا أن يكلموا – رجال عشيرتها لشراء خادم لها . فهى إذن متصلة بعشيرة هى عشيرة قيس أو العتكيين ومن الواضح أنهم كانوا أقرب الناس لها .

لست أود أن أخوض بالتفصيل فى حياة رابعة الأولى ، غير أنه يبدو أن رابعة كانت مولاة ، وكانت تعزف على الناى – فيما يقول العطار – ثم كانت مغنية ، وكانت على جانب كبير من الجمال والحسن ، ويدل على هذا نص هام يشرح لنا شرحاً كاملاً حياتها الأولى ، وقد نقل اليافعى لنا هذا النص فى روض الرياض عن بعض الصالحين « خطر لى أن أزور رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها وأنظر أصادقة هى فى دعواها أم كاذبة ، فبينا أنا كذلك ، وإذا بفقراء قد أقبلوا ووجوهم كالأقمار ورائحتهم كالمسك ، فسلموا على وسلمت عليهم . وقلت : من أين أقبلتم » . فقالوا : ياسيدى حديثنا عجيب . فقلت لهم : وما هو . فقالوا نحن من أبناء التجار الممولين . فكنا عند رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها فى مصر (ولعلها البصرة) فقلت : وما سبب ذهابكم إليها فقالوا : كنا ملتين بالأكل والشرب فى بلدنا . فنقل لنا حسن رابعة العدوية وحسن صوتها . وقلنا لا بد أن نذهب إليها ونسمع غناءها وننظر إلى حسنها ، فخرجنا من بلدنا إلى أن وصلنا إلى بلدها ؛ فوصفوا لنا بيتها ، وذكروا لنا أنها قد تابت . فقال أحدنا : إن كان قد فاتنا حسن صوتها وغنائها ، فما يفوتنا منظرها وحسنها . فغيرنا حليتنا ، ولبسنا الفقراء ، وأتينا إلى بابها . فطرقنا الباب فلم نشعر إلا وقد خرجت ، وتمرغت بين أقدامنا وقالت : لقد سعدت بزيارتكم لى فقلنا لها : وكيف ذلك . فقالت : عندنا امرأة عمياء منذ أربعين سنة ، فلما طرقتم الباب قالت : إلهى وسيدى بحرمة هؤلاء الأقوام الذين طرقوا الباب إلا ما رددت على

(١) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٧٨ – وانظر الدكتور بدوى شهيدة العشق الإلهى ص ١٠٨ .

بصرى . فرد الله عليها بصرها فى الوقت . قال : فعند ذلك نظر بعضنا إلى بعض وقلنا ترون إلى لطف الله بنا ، لم يفضح سريرتنا فقال الذى أشار علينا بلبس الفقراء والله لاعدت أقلع هذا اللباس من على . وأنا تائب إلى الله عز وجل على يدى رابعة فقلنا له . ونحن وافقناك على المعصية . ونحن نوافقك على الطاعة والتوبة فتبنا كلنا على يديها . وخرجنا عن أموالنا جميعها ، وصرنا فقراء – كما ترى[١]وقد أوردت النص بأكمله ليتبين لنا – أن الرواية وإن كانت تضع رابعة فى أسمى درجات المشيخة الصوفية فى وقت تعبدها المبكر متمرغة أمامهم وتحت أقدامهم الدنسة فى خضوع مطلق للإرادة الإلهية . مستلقية على حضرة الله ، ملقية إليهم بسر الطريق ، التصفية ، إلا أن الرواية تكشف لنا عن حياتها الدنيوية قبل التوبة . كان أبناء الأغنياء إذن يأتون إليها . ويستمعون إلى صوتها . وكانت تستقبل هؤلاء جميعاً ، وقد اشتهرت فى العالم الإسلامى بجمالها وغنائها .

ودخلت طريق العباد والزهاد . . . طريق البكاء والخوف ، وطريق التهجد فى الليالى الطوال . وكان لا بد أن تذهب لامرأة مثلها عانت الطريق من قبل . فاتصلت بحيونة ، عابدة من أكبر عابدات البصرة . وقد نتساءل : هل عرفت الطريق إليها بنفسها ، أم قادها إليها رياح القيسى . لقد كانت حيونة على صلات بعبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد بن زيد أستاذ رياح . فهل عرفت رابعة حيونة عن هذا الطريق . سواء هذا أو ذاك . فقد أثرت حيونة فى رابعة أشد التأثير . والأخبار قليلة – ولكنها كافية لكى تبين لنا تأثيرها فى رابعة .

كانت حيونة – خادمة من خادمات الله : وقد أعلنت هى هذا – حين صامت حتى اسودت ، فعوتبت على ذلك ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : لقد لامنى خلقك فى خدمتك ، فوعزتك وجلالك ! لأخدمنك حتى لا يبقى لى عصب ولا قصب . ثم أنشأت تقول :

يا ذا الذى وعد الرضا لحبيبه   أنت الذى ما إن سواك أريد

وهكذا تغنت بالحب الإلهى ورضا المحبوب . بل إنها تقول « من أحب الله أنس ومن أنس طرب . ومن طرب اشتاق . ومن اشتاق . وله ومن وله خرم . ومن خرم وصل . ومن وصل اتصل . ومن اتصل عرف ومن عرف قرب . ومن قرب لم يرقد . وتسورت عليه بوارق الأحزان » وسنرى رابعة تسير فى نفس الخطى خدمة الله . وإعلان الرضا . ثم تتغنى بالمحبة . وتعلو حيونة على الوعظ ، وتقف منه موقف المعاداة ، وترى فيه غثاء خارجياً ، لا يصل إلى القلب . وتقف حيونة يوماً على عبد الواحد بن زيد وهو فى حلقته – يعظ الناس بأسلوبه النارى ، ولكنها ترى أنه فى الحقيقة ما زال يتكلم عن الدنيا ،

---

(١) اليافعى : روض الرياحين ص ٣٦٩ – ٣٦١ .

ويدلل بها ، وأنه يهاجمها ، لأنه ما زال متعلقاً بها ، ثم هو – فوق هذا وذاك – يتقرب إلى العباد فتصرخ فيه : يامتكلم : تكلم عن نفسك . والله لو مت ما تبعت جنازتك . فاستدار عبد الواحد بن زيد إليها . وسألها – ولم ؟ قالت : تتكلم عن الخليقة وتتقربن لهم . ما شبهتك إلا بمعلم صبى علمه أن يحفظه بالقسى . فإذا بكر من بيت أمه نسى فيحتاج المعلم إلى ضربه . اذهب يا عبد الواحد . اضرب نفسك بدرة الأدب . وتزود زاد القناعة : واجعل حظك مما أنت فيه الكلام على نفسك . ثم تكلم على الخليقة ولقد عرق عبد الواحد بن زيد . وامتنع عن الوعظ سنة[1].

ونرى نفس هذه الصورة لدى رابعة ، فهى تقف موقف المعلم الروحى الكبير من سفيان الثورى . وكان سفيان يحب دائماً زيارتها ويدعوها بمأدبة الله . ويذكر جعفر بن سليمان العابد أن سفيان الثورى أخذ بيده وقال له : مر إلى المأدبة التى لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلا عليها . قال سفيان : اللهم إنى أسألك السلامة . فبكت رابعة : فقال لها سفيان : ما يبكيك . قالت : أنت عرضتنى للبكاء . فقال لها : وكيف ؟ قالت : أما علمت أن السلامة ترك ما فيها . فكيف وأنت متلطخ بها . ومرة ثانية يقول بين يديها « واحزناه » فتقول : لا تكذب . قل . واقلة حزناه . لو كنت محزوناً . ما هنأك عيش » وتعظه فتقول : إنما أنت أيام معدودة . فإذا ذهب يوم ، ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض ، أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل » وكذلك تفعل مع رياح القيسى وصالح بن عبد الجليل[2] وكلاب إنهم يدخلون بيتها ويجلسون بين يديها ، وتذكروا الدنيا فذموها فقالت رابعة : إنى لأرى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم . ومن أين توهمت علينا . قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء إلى قلوبكم ، فتكلمتم فيه[3] وهكذا . . . وعلى مثال حيونة – تقف رابعة من هؤلاء جميعاً – موقف الشيخ يقود المريدين إلى حظيرة القدس . بل إنها تنادى رياح بن عمرو القيسى . . . وتقول : يا غلام – وتأخذ بيده – وتدعو الله[4] . . .

ومرة أخرى تبدو حيونة — فى مقام أستاذة رابعة . فقد زارت رابعة حيونة وقضت الليل معها . ولكن لم يحتمل جسدها الرقيق السهر . فنامت فأيقظتها حيونة — وهى تقول : قومى . قد جاء عرس المهتدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجد[5] » فقامت رابعة للعبادة . وقد تصور الدكتور بدوى

---

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى : مصارع العشاق ص ١٢٨ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٨ و ١٩ .

(٣) صالح بن عبد الجليل : عابد من كبار العباد ، وقد نقل عنه أبوسليمان الدارانى . انظر : الحلية ج ٨ ص ٣١٧ .

(٤) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٦ لوحة ٢٠٨ .

(٥) النيسابورى : عقلاء المجانين ص ١٢٨ .

أن حيونة هنا ترمز إلى الزواج الروحى بالله ، وأن فكرة هذا الزواج اختمرت لدى العابدات المسلمات الأوليات قبل اختماره وظهوره لدى الرهبنة المسيحية بقرون . ويحاول أن يربط بين قول حيونة هذا وبين موقف رابعة من عبد الواحد بن زيد حين خطبها فرفضته ، والقصة كما يوردها الزبيدى « وخطبها عبد الواحد بن زيد ، فحجبته أياما حتى سئلت أن يدخل عليها . فقالت له : يا شهوانى . اطلب شهوانية مثلك . أى شىء رأيت فى من آلة الشهوة » . وفى الحقيقة إن قول حيونة لا يوحى أبداً بفكرة الزواج الروحى » من الله ، والزفاف به . إنه فقط إعداد لعروس الليل ، أن تملأ عرسها بالتبتل والتهجد . . . وحقا يكون الاستنتاج صحيحاً ، وأنه زفاف بالله ، إذا ما نقل عن هؤلاء العابدات ممن ذكرن هذه العبارات ، كلمات العشق أولا ، وهذا ما لا نجده أبدا . وثانيا — رؤية الله وإشراقه عليهن وتجسده . وفكرة الزواج الروحى فى الرهبانية المسيحية متصلة بفكرة التجسد الإلهى ، ولم يرد شىء من هذا على الإطلاق فى كلام العابدات المسلمات الأوليات . ثم ماذا نقول فى هؤلاء المحيين من الرجال ، ممن امتنعوا عن الزواج . هل أملوا أيضا — بنور التهجد — الزواج بالله . أو أنهم اتجهوا فى هذا الوقت المبكر من تاريخ الحياة الروحية فى الإسلام إلى فكرتى الحلول والاتحاد . وهو ما لا نجده أيضا فى تاريخ هؤلاء الرجال ، وسيرد عن رابعة نفسها أبيات فى الحلول يبرئها الذهبى منها ، أو يفسرها تفسيراً آخر . ثم نأتى إلى أقوال رابعة فى رفضها عبد الواحد بن زيد — كما ذكر عنها رفضها للحسن البصرى — وهو خطأ تاريخى . أقول إن رابعة فى رفضها لعبد الواحد بن زيد تطلب من هذا الشهوانى أن يبحث عن شهوانية مثله . أما هى — وهى فى تعبدها وتهجدها وتزهدها قد فقدت آلة الشهوة . أى أنها تقرر أن هناك سببا ماديًّا يحول بينها وبين هذا الزواج .

وقد تزوجت العابدات من قبلها ، وسنرى رابعة بنت إسماعيل الشامية تتزوج أحمد بن أبى الحوارى . ولا يمنعها الزواج من إطلاق أغانى الحب الإلهى . ثم إننا لا نجد فكرة « الزواج الإلهى » بعد ذلك فى أوساط صوفية الإسلام . سنجد نظرية الحب تتصل بالحلول ، كما تتصل بالاتحاد — أى وحدة الوجود . وسنراها تتصل بوحدة الشهود . كما سنراها لدى صوفية أهل السنة والسلف فى نظرية جميلة تتصل برؤية الوجه الإلهى ، ولكننا لن نرى فكرة الزواج الإلهى فى صورته المسيحية الرهبانية فى أوساط صوفيات الإسلام وصوفيته فيما بعد .

وعلى أية حال — فقد كان لحيونة من التأثير فى رابعة الشىء الكبير ، وكان لا بد لرابعة أن تلجأ إلى امرأة ، وهى فى أول الطريق ، وقد حاكت حياتها واستمعت إليها وهى تقول[1] .

ياذا الذى وعد الرضا لحبيبه أنت الذى ما إن سواك أريد

(١) الزبيدى : اتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين ج ٩ ص ٥٧٦ .

واستمعت إليها وهى تدعوه بواحدها :

يا واحدى : تمتعنى بالليل التلاوة ، ثم تقطعنى عنك فى ضياء النهار . يا إلهى . وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك[١] » ...

وهكذا فعلت رابعة من بعدها ، بل إن حيونة هى التى دفعتها إلى قيام الليل ، حتى وصلت إلى القرب الإلهى .

ولم تكن حيونة العابدة الوحيدة فى هذا العصر التى نادت بفكرة الحب الإلهى قبل رابعة . كان غيرها الكثيرات . شعوانة الفارسية ، وقد اعتبرها المؤرخون من « السلف الصالح » أنشدت الحب قبل رابعة فى الأبلة ، الثغر الفارسى القديم ، وعاصرتها رابعة ، كما كان هناك بردة الصريمية ، وقد أطلقت — قبل رابعة نفس العبارات التى أطلقتها رابعة فى الحب الإلهى [٢] . وعاصرت رابعة أيضاً عبيدة بنت أبى كلاب [٣] من كبار العابدات فى البصرة . وكذلك عفيرة العابدة المشهورة [٤] كما قامت على خدمة رابعة — عبيدة بنت أبى شوال ، وكانت من خيار « إماء الله[٥] » ثم مريم البصرية وكانت أيضاً خادمة لرابعة « وكانت إذا سمعت علوم المحبة طاشت » . بل يذكر ابن الجوزى أنها حضرت بعض المذكرين ، فتكلم فى المحبة ، فماتت فى المجلس [٦] . ونستنتج من هذا أن القوالين والمذكرين كانوا يتناولون علم « المحبة » وينشدون أناشيدها فى عصر رابعة ، وإننا نرى خادمتها تصعق وتموت فى مجلس الذكر ثم نرى صورة أخرى من رابعة وهى حبيبة العدوية تكاد تعيش فى نفس العصر تقوم على سطح منزل وتشد عليها درعها وخمارها فى الليل . وتقول : « إلهى غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وبابك مفتوح ؛ وخلا كل حبيب بحبيبه . وهذا مقامى بين يديك » فإذا كان السحر ، أخذت تردد « اللهم وهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى هل قبلت منى ليلتى ، فأهنى ، أم رددتها على فأعزى ، فوعزتك لهذا دأبى ، ودأبك أبدا ، لو انتهرتنى ما برحت من بابك ، ولا وقع فى قلبى غير جودك وكرمك [٧] » .

وذكر ابن الجوزى ابنة أم حسان الأسدية البصرية بة وكان يزورها سفيان الثورى — كما كان يزور

---

(١) النيسابورى : عقلاء المجانين ص ١٢٨ .

(٢) ابن الجوزى صفة ج ٤ ص ١٦ — ٣٩ .

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢١٨ وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ٢٢٤ ، ج ٤ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٥) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩ .

(٦) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢١ .

(٧) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٠ .

رابعة ، وقد اتهمته أيضاً ، كما اتهمته رابعة بحب الدنيا . وذكر سفيان عنها أيضاً أنه كان إذا جن عليها الليل ، دخلت محراباً لها وأغلقت عليها ونادت «إلهى خلا كل حبيب بحبوبه ، وأنا خالية بك يا محبوب [1] » .

وكان هناك فى الكوفة ميمونة السوداء وقد ذكرنا قصتها مع عبد الواحد بن زيد . وفى الأبلة أيضاً «ريحانة » وقد ذكر صالح المرى أنه رآها فسلم عليها فقالت : يا صالح اسمع :

بوجهك لا تعذبنى فإنى أؤمل أن أفوز بخير دار
وأنت مجاور الأبرار فيها ولولا أنت ما طاب المزار

بل كان يذهب إليها ثابت البنانى هو ومجموعة من العباد ، ويقضى الليل فى بيتها بالأبلة . وكانت تقوم أول الليل وهى تقول :

قام المحب إلى المؤمل قومة كاد الفؤاد من السرور يطير

فلما كان جوف الليل ، سمعها ثابت البنانى وأصدقاؤه تقول :

لا تأنسن بمن توحشك نظرته فتمنعن من التذكار فى الظلم
واجهد وكد وكن فى الليل ذا شجن يسقيك كأس وداد العز والكرم

ثم تنادى — حين يطل عليها الصباح : واحرباه واسلباه :

ذهب الظلام بأنسه وبألفه ليت الظلام بأنسه يتجدد

ونرى نفس الأمر يتكرر عند رابعة . يأتى إليها العباد ويقضون الليل فى بيتها ، ثم تردد هى أغانى الحب . . .

أما عن صلات حياة رابعة بالرجال من الزهاد ، فإنه لم يبحث بعد أيضاً . غير أننى أود أن أضع هنا بعض الملاحظات العامة : هل تعبدت رابعة — والعبادة هنا بمعناها الفنى هو هجر الدنيا والانقطاع لله — وهى فى أوج جمالها وحسنها . كما تصورها الأسطورة ، أما أنها قد فعلت هذا وقد تقدم بها السن . إننا نراها تصرخ فى عبد الواحد بن زيد حين تقدم لخطبتها «يا شهوانى — اطلب شهوانية مثلك ، ماذا تجد فىّ من آلة الشهوة» — وهذه صرخة من امرأة فى خريف الحياة . ثم ما هى صلاتها بالقيسيين وبخاصة رياح بن عمرو القيسى إنه يأتى بصديقه الأبرد ويقول لها «استرى بثوبك» وهذا نداء من زوج ، فهل هى امرأته . هل هى «امرأة رياح القيسى» التى ذكرها ابن الجوزى ، والتى ذكر أنها كانت أكثر منه عبادة وقياماً بالليل ثم إن شميط بن عجلان — وهو الذى زوج رياحاً هذه المرأة

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣٠ .

العابدة ، كان من مشايخها[١] . ثم هناك مجموعة من الرجال قدستهم رابعة أشد التقديس ، منهم عبد العزيز بن سلمان الراسبي ، وكانت رابعة تسميه «سيد العابدين» وكان لعبد العزيز الراسبي سرداب يخلو به [٢] .

ونحن نتساءل أيضاً ما هي صلاتها بالعتكيين . . . وهي في زمن عبادتها وقد عرفت بأنها مولاة آل عتيك . كان ضيغم بن مالك من العتكيين . وقد عرفته رابعة معرفة تامة [٣] . وقد عرف عنه أيضاً أقوال في الرضا «لو أعلم أن رضاه أن أقرض لحمي لدعوت بالمقراض فقرضته» ، ويخاطب الله : «قرة عيني» وإذا أصابته الفترة ، اغتسل وقال «كيف عزفت قلوب الخليقة عنك ، ثم يدخل بيته ، ويغلق بابه ويقول «إلهي – إليك جئت[٤] » . هل كانت هذه كل الصلة ، صلة الإعجاب بعابد ، أم أن رابعة – وهي في أوج تعبدها – كانت تتصل بأوليائها القدامى ، وكان من الرواة عنها أيضاً بشر ابن صالح العتكي [٥] . ثم إنها أيضاً كانت على صلات ببشر بن منصور السلمي ، وتحمل له في نفسها أعظم التقدير[٦] .

وإذا انتقلنا إلى عرض آرائها كواحدة من عابدات المسلمين ، ونموذجاً صوفياً فلسفياً ، يضعها في نسق صوفية الحلول ، ويصدر عنها الشطح ، وخلع العذار ، ويمثل أصحاب النموذج الأول : ابن الجوزي وابن تيمية والذهبي ، ومؤرخو التصوف السني – من أمثال الكلاباذي والقشيري وأبو طالب المكي والغزالي والزبيدي وغيرهم ، أما أصحاب النموذج الثاني – فهم مؤرخو التصوف المتأخرون من الفرس ، والشعراء المتأخرون الصوفية منهم . ثم جماعة من الحلولية ، اتهموا بأنهم قد وضعوا على لسانهم نظرية الحلول ، أو أنهم فسروا كلامها تفسيراً حلولياً ، وجعلوها الصوفية الأولى التي شطحت في البصرة ؛ بل بلغت في شطحها الأوج . ثم جعلوها المبشرة الأولى بفكرة الحج بالهمة . وأننا نلاحظ أن أصحاب النموذج الأول هم المؤرخون الحقيقون ، الذين كتبوا التاريخ بنزاهة وأمانة ، وأما المتأخرون من الفرس – مؤرخين كانوا أو شعراء ، فكانوا يجملون المتقدمين من الصوفية والعباد آراءهم هم ، ويجعلونهم أسطورة من أساطير التصوف .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٦ لوحة ٢١٨ .
(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٨٨ .
(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٠ .
(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٨٦ ، ج ٤ ص ١٩ .
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٦ لوحة ٢٠٨ .
(٦) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٨٦ .

وسنعرض فى إيجاز لآراء رابعة طبقاً للنموذجين .

أما النموذج الأول : فتظهر فيه رابعة فى صورة المرأة الزاهدة العابدة الخاشعة [١] . تسمع الآية القرآنية فتخشع وتسقط باكية . وتقضى الليل كله فى صلاة ، وكانت تعلن أنها تطلب رضاء الرسول يوم القيامة وأن يباهى الأنبياء بعملها ، فإذا طلع الفجر ، هجعت هجعة . ثم تستيقظ — وهى تقول : «يا نفس كم تنامين . وإلى كم تقومين . يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا ليوم النشور» .

ثم أخذت تطلق فى الاستغفار كلمات ربانية ، استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق . وبدأت تخرج عن الدنيا كلية ، فتكره ذكرها حتى فى مقام الذم ، وتستشهد بقول الرسول «من أحب شيئاً أكثر من ذكره» وتصرخ لصالح المرى وهو يعظ بنفس الحديث وتقول للعباد : ذكركم لها دليل على بطالة قلوبكم» إنها تراهم غرق فيها ... فتقول «إذ لو كنتم غرق فى غيرها ما ذكرتموها» وكثيراً ما قالت لسفيان الثورى إنه ملطخ بهذه الدنيا ، شارب كأسها حتى الثمالة «أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطخ بها [٢] » ويقول بين يديها «واحزناه» — فترد عليه «لا تكذب : قل واقلة حزناه . لو كنت محزناً ما هنأك عيش [٣] » وكانت تعيب عليه اشتغاله بالحديث وتنظر إليه وتقول «نعم الرجل أنت لولا رغبتك فى الدنيا . فقال : ماذا رغبت قالت : فى الحديث» ولا تبقى للدنيا ذرة من مدخل فيها . ترفض أموال الناس وصلاتهم وهداياهم . فأتاها رجل بأربعين ديناراً لتستعين بها على الحياة — فترفض باكية ، وترفع رأسها إلى السماء — قائلة «هو يعلم أنى أستحى منه أن أسأله الدنيا ، وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن لا يملكها [٤] » .

وعاشت مدة طويلة فى مقام الخوف «فإذا سمعت ذكر النار أغمى عليها» بل إن مالك بن دينار يسمعها تقول «كم من شهوة ذهبت لذتها ، وبقيت تبعتها . يا رب أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار» . ثم ما تلبث أن تنتهى إلى الرضا وتعبر عن هذا الرضا حين سئلت «متى يكون العبد راضياً» فترد : «إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة» . ولم تعد تسعى لرزق ، وتساوى عندها اللذة الألم ، وقد حدث أن اصطدمت رأسها بجدار ، فأدماه ، فلم تلتفت لذلك . فقيل لها : ما تحسين بالألم . فأجابت : شغلى بموافقة مراده — فيما جرى شغلنى عن الإحساس بما ترون [٥] .

وتعيش فى منزلة «الحيرة» فتتساءل يوماً «من يدلنا على حبيبنا» ، فتقول لها خادمتها «حبيبنا

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٦ / ٢ . لوحة ٢٠٨ وانظر الدكتور بدوى ص ١٨٣ .

(٢) المناوى : طبقات الأولياء . . ١٠٤ / ب والدكتور بدوى . رابعة ص ١٣٥ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ .

(٤) نفس المصدر : ج ٤ .

(٥) المناوى : طبقات الأولياء ١٠٤ ب ، ١٠٥ ب .

معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه[١] » ... فلا بد إذن من قطع الدنيا ... حتى يكون الحبيب معها . وتسير فى طريق حيونة . الرضا يدفعها إلى الاستهلاك فى حب الله ، ولكنها ما زالت خائفة ، فتناجيه : إلهى : أتحرق بالنار قلبا يحبك . فهتف هاتف : ما كنا نفعل هكذا . فلا تظنى ظن السوء[٢] » فينتهى الخوف ، وقد اطمأنت فى مناجاتها ، واختفت آلام الدنيا ، ثم تجاوزت نظرتها النعيم الأخروى المادى ، فيسألها سفيان الثورى : ما حقيقة إيمانك : فتقول : ما عبدته — خوفاً من ناره — ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء ، إن خاف عمل ، بل عبدته حبًّا له وشوقاً إليه[٣] » وفى نفس عبارات حبيبة العدوية وبردة الصريمية ، بل بنفس الحركات تقوم على السطح وتشد عليها درعها وتضع خمارها تقول : « إلهى — أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها . وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ... »ثم تقبل على الصلاة والتهجد والعبادة حتى الصباح ، فإذا كان وقت السحر ، وطلع الفجر قالت : إلهى — هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر . فليت شعرى : أقبلت منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها على فأعزى . فوعزتك . هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى . وعزتك . لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه ، لما وقع فى قلبى من محبتك[٣] » ... ثم يورد صاحب الروض الفائق أبياتاً لها كانت تنشدها :

يا سرورى ومنيتى وعمادى وأنيسى وعـدتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى ما تشتت فى فسيح البلاد

وإنى لأشك بعض الشك فى نسبة هذه الأبيات إليها . فهى تذكر التشتت فى البلاد . ونحن نعلم أنها لم تكن من السائحات ، فقد استقرت فى البصرة ، اللهم إلا خلال حجها . فهل اعتبرت الحج هو التشتت فى البلاد . هذا بعيد ثم ينسب إليها رباعيتها المشهورة والتى ترجح نسبتها لذى النون :

أحبك حين حب الهوى وحبًّا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فذكر شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا وفى ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وقد شك الأقدمون أيضاً من الباحثين فى نسبة هذه الرباعية لها ، فنسبوها إلى سفيان الثورى

---

(١) القشيرى : الرسالة ص ١٤٧ – ١٤٨ .
(٢) الزبيدى : اتحاف السادة المتقين ج ٩ ص ١٨٨ .
(٣) الحريفيش : الروض الفائق ص ١١٧ .

وجعفر بن سليمان الضبعى ، وعبد الواحد بن زيد وحماد بن زيد (١) . ولكن الدكتور كامل الشيبى يشك فى صدور هذه الأبيات عن العصر كله . يقول «ويبدو من هذه الأبيات التأخر أولاً ، وضعفها باد فى التعبير وفى السبك ، وعليها مسحة الشعر التعليمى الذى يقصد به ، ضبط تفاصيل العلوم فى أبيات تحفظ عن ظهر قلب» (٢) وهذا واضح تماماً من تأمل الشعر ، ثم هناك شواهد – تمت إلى النص الخارجى للنصوص يؤيد هذا . إن معظم من أرخوا لرابعة لم يذكروا هذه الأبيات لها وبخاصة ابن الجوزى وأبو نعيم . ثم لم يوردها الذهبى – فيما بعد – مع أنه أورد بيتين لها يوهمان الحلول . ثم يورد أبو نعيم وغيره هذه الرباعية منسوبة إلى ذى النون المصرى أو على الأقل يوردها هو وغيره – فى حديث له مع جارية قابلها على ساحل البحر ، عليها أطمار شعر ، وهى ناحلة ذابلة ، فدنا منها ليسمع ما تقول ، فرآها متصلة الأحزان بالأشجان ، وعصفت الرياح ، واضطربت الأمواج ، وظهرت الحيتان . . . فصرخت ثم سقطت على الأرض . فلما أفاقت . . . قالت : سيدى بك تقرب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات . أنت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفلك الدوار والبحر الزخار ، والقمر النوار والنجم الزهار ، وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك العلى القهار .

يا مؤنس الأبرار فى خلواتهم ... يا خير من حلت به النزال
من ذاق حبك لا يزال متيما ... فرح الفؤاد – متيماً بلبال
من ذاق حبك لا يرى متبسماً ... من طول حزن فى الحشا إشال

فقال لها : زيدينا من هذا . فقالت : إليك عنى . ثم رفعت طرفها إلى السماء – وقالت :

أحبك حبين : حب الوداد ... وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حب الوداد ... فحب شغلت به عن سواك
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراك
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى إذ وذاك

إن هذه الرباعية من روح ذى النون المصرى ، وقد كان ذو النون معلماً كبيراً ، وشيخاً لمريدين ، كما كان إسماعيليًّا تعليميًّا ، اتصل بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة ، وعرف الفلسفة عامة وهناك إشارة لامعة للعالم الممتاز الدكتور كامل الشيبى يذكر فيها أن «شعراً شبيهاً بهذا الذى نسب إلى رابعة عرض على الكندى الفيلسوف ، فقد سمع إنساناً ينشد :

---

(١) الزبيدى : اتحاف السادة المتقين ج ٦ ص ٥٧٧ .
(٢) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٢٥ .

وفى أربع منى حلت منك أربع فما أنا أدرى أيها هاج لى كربى
خيالك فى عينى أم الذكر فى فمى أم النطق فى سمعى ، أم الحب فى قلبى

فقال الكندى – والله لقد قسمتها تقسيماً فلسفيًّا . يقول الشيبى «وإذا كان هذا التعداد الجميل يدخل فى باب التقسيم الفلسفى ، فما أخلق أبيات رابعة — والمفروض أنها سابقة عليه — أن تدخل المدخل نفسه ، فتنقطع الصلة بين الأبيات وبين زاهدتنا العاشقة التى لم تخطر المنطقة والترتيب على بالها »[1] ويلاحظ أن الكندى (١٨٥—٢٥٢) قد عاصر ذا النون المصرى (١٨٠ هـ ٢٤٥ هـ) وقد زار بغداد . فلا شك أن هذا الأخير إذن ، قد عرف ثقافات عصره وبخاصة أنه كان فى بيئة الأفلاطونية المحدثة . فى مصر . ثم إذا كانت الأبيات تنسب له فى هذا اللقاء الروحى أو هذه المناجاة الروحية مع امرأة على الساحل ، فلا شك أن الأبيات له . اللهم إلا إذا كانت من التقاسيم المدنية التى كانت تنشدها رابعة — وهى تغنى قبل تعبدها — ثم استخدمتها فى تعبدها رمزاً على حبها الإلهى .

على أننى أرى أنه سواء كانت هذه الأبيات لذى النون المصرى أو لغيره — ففيها تأريخ لحياة رابعة . فهى فعلا كانت تتردد بين حبين : حب الهوى : وحب لما هو أهل له . وقد أكثر الباحثون من الصوفية — بعد رابعة فى شرح هذين النوعين من الحب . واعتبروا الحب الثانى هو الحب البحت الأعظم ، بل إن مارجريت سميث ترى أن الحب الأول هو حب الأثرة ، والحب الثانى هو حب الإيثار . وإذا رجعنا إلى النص نفسه المنسوب إلى رابعة ، نجد تحديداً لنوعى حبها . فالأول هو الشغل بذكره عمن سواه . والثانى هو حب كشف الله للحجب حتى تراه . والأول : يكسبه الإنسان بذكره ، والثانى منة منه لها ويبدو الأول — مقاماً ، والثانى حالا «والمقامات مكاسب والأحوال مواهب » ثم لماذا لا نفسر هذين الحبين فى ضوء النصوص السمعية ، إن فعلنا . . . كان الحب الأول أقوى وهو موجود عند السلف .

أما بعد : فإن الطريق يقود رابعة إلى أوج الحب — إلى الخلة ... وقد قلنا من قبل إن نظرية الخلة قد نسبت إلى رياح القيسى وكليب ... وها هى رابعة تنادى بها أيضاً . فيذكر الزبيدى «أن من قولها النادر فى مقام الخلة » .

وتخللت مسلك الروح منى وبه سمى الخليل خليلا
فإذا ما نطقت كنت حديثى وإذا ما سكت كنت الغليلا

ثم كانت «كما يقول الزبيدى عنها — تذكر الأنس فى وجدها وترتفع إلى وصف معنى الخلة فى قولها السائر .

---

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٢٥ ٪ ٣٢٦ .

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى [١]

وقد ذكر الذهبى أن رابعة كانت تتمثل بالبيت الأول – فهل لم يكن من تأليفها – : إنى جعلتك . . . إلخ . وعلق عليه « فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت ، وإلى الإباحة بتمامه . قلت فهذا غلو وجهل . ولعل نسبها إلى ذلك مباحى حلولى . ليحتج بها على كفره ، كاحتجاجهم بخبر . . . كنت سمعه الذى يسمع به » . فمقام الخلة إذن انتهى فى نظر بعض الناس إلى الحلول والإباحة . ولكن الذهبى يرى أن هذا غلو وجهل ويورد عن أبى سعيد بن الأعرابى : أما رابعة فقد حمل الناس عنها حكمة كثيرة » ثم يقرر أن سفيان وشعبة وغيرهما حكوا عنها ما يدل على بطلان ما قيل عنها [٢] .

ولا شك أن الذهبى — وهو أعظم ناقد للرجال — ما كان يخفى عليه حقيقة رابعة . غير أن مقام الخلة نفسه ، وأبيات رابعة ، تحتاج إلى تمحيص أكثر . إن من المؤكد أن هؤلاء الرواد الأوائل لحياة الروح فى الإسلام ، تلقوا من القرآن ما يؤكد ويؤكد مواجيدهم ، فحين أحسوا بالعاطفة المتقدة تتخلل بواطنهم ، نظروا إلى القرآن ، ورأوا منزلة إبراهيم ، فاعتبروا ما يعانونه إنما هى معاناة تشبه معاناته . فسموا هذه المعاناة «الخلة» ثم تطورت المسائل وتشابكت ، وخرجت منزلة الخلة عن معناها ، أو استخدمها حلقات من أصحاب الحلول والزندقة والإباحية ، هل فعلت رابعة ورياح وكليب هذا . إننا لا نجد فى حياتهم ظلا من زندقة أو إباحية . ولكن ظهر فى البصرة بجامع الزنادقة والإباحية والفساق وكانوا يعللون كل هذا تعليلاً غنوصيًّا . وقد وجه الدكتور كامل الشيبى نظرى إلى نص هام ذكره سعد ابن عبد الله الأشعرى صاحب كتاب المقالات والفرق عن «أصحاب المجاهدة فى البصرة همام وحرب النجار وعبد السلام السروطى . بوصفهم » ممن يجعلون للفرض حدا ، والامتحان نهاية ، إذا بلغها العبد ، سقطت عنه المحنة . وذلك أن العبد — إذا صلح وطهر وخلص ، فارق الأدناس ، ولم يأخذ الأمور على الأهواء ، لم يجز امتحانه ، ولم يحسن فى الحكمة اختباره ، ولذلك فكل حرام على غيره ، حلال له » [٣] والنص يحتاج إلى تحقيق ، هل يذهب هؤلاء همام وحرب النجار وعبد السلام السروطى إلى هذا النوع من إسقاط التكاليف إذا وصلوا إلى نهاية المجاهدة ، أم أن هذا النص من قبيل نص الملطى عن الروحانية وأصحابها من أمثال رياح وكليب وحيان . ونجد أن هذا المذهب قد بشر به

---

(١) الزبيدى : اتحاف السادة . . ج ٩ ص ٥٧٦ .

(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٦ / ٢ لوحة ٢١٨ .
وانظر الدكتور بدوى : رابعة ص ١٨٤ .

(٣) سعد بن عبد الله الأشعرى : المقالات والفرق ص ٤٢ .

مالك بن دينار فى قوله «ما من أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة ، فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح ، وإن جزع رجع» (١) فالروحانية هنا منسوبة إلى «روح وريحان» القرآنيتين ... هذا المذهب الذى يفسره الملطى على أنه مذهب من مذاهب الزنادقة . ويفسر رؤى عباد البصرة على أنها حصول على خيرات الجنة فى هذه الحياة ، حصولاً مادياً ، وفى هذه الحالة يعلن الملطى كما يعلن أبو داود السجستانى زندقة هؤلاء وخروجهم على الإسلام . ولكننا إذا قرأنا أقوال أبى طالب المكى فى قوت القلوب والزبيدى فى إتحاف السادة وأحمد ضياء الدين الكمشخانلى فى جامع الأصول فى الخلة والروحانية لوجدنا معانى إسلامية بحتة ، وتطور لهاتين النظريتين فى أوساط التصوف السنى ، وتحتاج المسألة إلى بحث واسع .

ومع هذا فلا ينبغى أبداً أن ننسى أن نتائج المذهب أقوى من مقدماته ، وأن العبرة فيه هى فى التفسير . وتتعدد التفاسير ، وينحنى السياق .

وأود أن أنتهى من هذا كله أن رابعة شاركت فى نظرية الخلة التى ظهرت فى أوساط البصرة بين عبادها أو بين ملاحدتها وإباحييها . فهل انتهت بها العبادة إلى هذا ، إلى مقام الخلة ، مقام إبراهيم ، ثم مقام محمد مقام قاب قوسين أو أدنى ، أما أنها خلعت العذار وقد أباحت جسدها لجليسها ، وألقت الخمار — خمارها المشهور — هنا تختلط الحقيقة بالأسطورة والخيال بالتاريخ . وهنا نصل إلى النموذج الثانى : النموذج الفلسنى ، متبديا فى صورة شطحات .

وكان أول شطحة لها — نتيجة لآرائها أو لنظريتها فى الخلة ، فالخليل يغار على خليله ، ولا يرضى أن ينظر لسواه . ونرى الكلاباذى (وهو من أقدم مؤرخى التصوف) يقول فى التعرف «دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى . فقالوا : ما حالك . قالت : والله ما أعرف لعلتى سببا . عرضت على الجنة ، فلت بقلبى إليها . فأحسب مولاى غار على . فعاتبنى . فله العتبى (٢) » . ويعلق الكلاباذى على هذا بأنه من لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم ... ثم تبدأ فى شطحات الدلال ، فتصبح أمام الشيخ الكبير مالك بن دينار «كم من شهوة ذهبت لذتها ، وبقيت تبعتها يارب . أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار (٣) » ... وبعد : فها هى تعدو مسرعة فى شوارع البصرة أمام جماعة من الفتيان ، وفى إحدى يديها نار وفى الأخرى ماء ... وسألها الفتيان : أيتها السيدة : إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبتغين . فقالت : أناذاهبة إلى السماء ... حتى ألقى بالنار فى الجنة ، وأصيب الماء فى الجحيم ، فلا تبقى

---

(١) أبو نعيم : احلية ج ٢ ص ٣٧١ .

(٢) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٣١ والمناوى . طبقات ١٠٥ ا .

(٣) المناوى : طبقات ١١٠٥ .

الواحدة ولا الأخرى.. إنها لا تريد الخوف ولا الرجاء. تريد أن يبقى الله ومحبته [١]. بل إنها تأسف لأهل الجنة أن شغلهم بغير الله. إنهم يريدون فقط نعيمها المادى [٢].

وتذهب إلى الكعبة للحج على دابتها، ثم تذهب مرة ثانية «متقلبة» على أضالعها — ثم تبين لها — وقد وصلت إلى مرتبة الخلة أن الكعبة «هذا الصنم المعبود فى الأرض، وإنه ما وجه الله، ولا خلا منه»[٣] وقد أنكر ابن تيمية أن يصدر عنها هذا، ونحن نعلم أن هذه الفكرة قد نشأت فيما بعد — على يد أبى يزيد البسطامى، ثم ظهرت فى صورتها الكاملة عند الحسين بن منصور الحلاج. فهل كانت رابعة رائدتها. أو أن المتأخرين ممن اعتنقوا فكرة الحج بالهمة نسبوا إليها هذا القول، نتيجة خاطئة لمذهبها فى الخلة، وأنه لم يعد بينها وبين الحبيب حجاب، ولم تعد ترى السعى إلى بيته، حين أصبح بيتها هو بيته ... وقد أضفى فريد الدين العطار خياله الخصيب على مواقفها من الحج. فالكعبة تنتقل إليها، ولا يجدها إبراهيم بن أدهم، ... لأن الكعبة ذهبت لمقابلة رابعة ... ثم رابعة فى حالة الصعق، لا ترى غير الله، فلا البيت ترى، ولا غير البيت. إنها ترى رب البيت فقط. ولقد أقام العطار بناءاً صوفيًا على صيحات رابعة، ... ثم اعتبر رابعة «مريم الثانية» وخادمة الصديقة عائشة [٤].

ثم تأتى قصة «الحمار» حمارها التى حملته فى صلاتها، ثم فى تهجدها الليالى الطوال، ثم تضعه حين تناجى الحبيب وها هى تقول «لو وضعت حمارى ما بقى بها أحد» [٥].

هل هى هنا فى مقام الوحدة؟ إن ابن خلدون يسوى بينها وبين أبى يزيد البسطامى، وهو يشطح «سبحانى ما أعظم شأنى» ... و«جزت بحراً وقف الأنبياء بساحله» ويقرر أن حال الغيبة والسكر استولت عليهما، حتى تكلما بما ليس فيه الكلام.

وأخيراً ... يأتى عز الدين بن عبد السلام المقدسى فيضعها فى ميدان المحبة، فى «الواقعة» فى الغار، غار محمد، هناك فى مقام المعية [٦]، منادية:

كأسى وخمرى والنديم: ثلاثة ... وأنا المشوقة فى المحبة رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها ... ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له ... وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلى إنى أحب جماله ... تا الله ما أذنى لغيرك سامعه

---

(١) الدكتور بدوى: رابعة ص ١١٢.
(٢) المناوى: طبقات ١١٠٥.
(٣) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٨٠ — ٨١.
(٤) العطار: تذكرة للأولياء ج ١ ص ٥٩، ٧٣ نشرة نيكلسون والدكتور عبد الرحمن بدوى: رابعة ص ٤٢ — ٧٣.
(٥) ابن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل ص ٥٥.
(٦) عز الدين بن عبد السلام المقدسى: شرح حال الأولياء ص ١٢٥٣.

وكان لرابعة ، الحقيقة أو الأسطورة ، أعظم الأثر فى الصوفية من بعدها وأعظم الاحترام . فيرى ابن عربى أنها فى رتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى وأبى السعود بن شبل ، واعتبرها هى والجيلانى وابن شبل من «السائرين إلى الله بعزائم الأمور ، وأنهم ربطوا همتهم على أن الرسول إنما جاء منبها ومعلماً بالطرق الموصلة إلى خبايا الحق ، فإذا أعطى العلم ، بذلك زال من الطريق ، وخلى بينهم وبين الله ، فهؤلاء إذا سارعوا سبقوا إلى الخيرات لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم ، وانفردوا إلى الحق [١] » .

أما بعد : فقد عرضنا للنموذجين من آرائها : ونعرض الآن لأثر آرائها فى رجال النموذجين . فقد كان أثر رابعة كبيراً فيما بعد فى مجرى التصوف الإسلامى ، التصوف التقليدى السنى ، والتصوف البحت ، والتصوف الفلسفى . أما فى دوائر الصوفية التقليدية السنية ، فقد اعتبر هؤلاء الصوفية رابعة فى قمة المنازل الصوفية ، وبخاصة فى مقامات الرضا والحب والخلة . أما فى مقام الرضا ، فقد وضعها «صاحب القوت» فى أعلاه ، عالية على سفيان الثورى ، تعلمه حقيقة الرضا ، أعلى مقامات اليقين بالله . أما فى مقام المحبة ، فقد شغلت رابعة فى مباحث القوت ، أكبر مكان ، وأخذ يشرح نوعى محبتها شرحاً صوفيًّا عميقاً ، فعرض لحب الهوى ولحب ما هو أهل له . ويذكر أبو طالب المكى علوها على سفيان الثورى : وهو يجلس بين يديها قائلاً : علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة . . . فتكلمه عن عبادتها لله ، فى مقام الحب . وهنا يظهر صاحب القوت ، التصوف عالياً على الحديث ، ثم يذكرها بعد ذلك عالية على الزهد ، فترفض الزواج بشيخ العباد ، ثم بأمير البصرة محمد بن سليمان ، عالية على الجنة — الممثلة فى عبد الواحد بن زيد — وعلى الدنيا الممثلة فى محمد بن سليمان ، مستغرقة فى البهاء الإلهى ، محترقة بحب الله [٢] . ثم يضعها فى مقام الخلة ، أعلى المقامات عند قوت القلوب ومدرسته .

ومقام الخلة «هو مقام فى المعرفة الخاصة» وتحديده «تخلل أسرار الغيب فيطلع على مشاهدة المحبوب ، بأن يعطى حيطة بشىء من علمه بمشيئته على مشيئته التى لا تنقلب ، وعلمه القديم الذى لا يتغير [٣] «كان رياح وكليب ثم رابعة رواده بل واضعيه . . . وأثر مقام الخلة فى الصوفية من بعده : شقيق البلخى وإبراهيم بن أدهم وسهل بن عبد الله التسترى ، ثم فى السالمية وصاحب القوت نفسه [٤] . حتى ينتهى إلى أبى حامد الغزالى . ثم كانت رابعة من الروحانية ويفسرها لنا أيضاً

---

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ٢ ص ٧٦ ، ٨٠ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥٦ .

أبو طالب المكى تفسيرات متعددة فى كتابه ، فى نسق إسلامى خالص تكشف لنا عن حقيقة هذا المصطلح ، وتطوره [١] .

ثم نرى أثر رابعة الكبير فى آرائها عن الحب والخلة فى مجموعة الصوفية على وجه الحقيقة الذين توالوا بعدها ، بحيث لا تخلو حياة واحد منهم أو آراؤه من هذا الأثر . واستخدمت أقوالها استخداماً صوفيًّا بحتا واصطنعت لتدعيم نظريات فلسفية غنوصية . فترد أسطورة حجها الروحى فى حياة إبراهيم بن أدهم ، بل تجعلها الأسطورة يتلاحيان : وسنعود إلى بحث هذه الأسطورة حين نعرض لآراء إبراهيم ابن أدهم وتصوفه . كما نرى أيضاً فى شطحات أبى يزيد البسطامى أسطورة رابعة وحجها ، بحيث يكاد يردد الآراء المنسوبة لرابعة عن « الكعبة » . وأثرت رابعة فى ذى النون المصرى – كما رأينا . أما أثر رابعة الصارخ فقد كان فى مدرستين : مدرسة الشام ، ومدرسة بغداد . أما فى مدرسة الشام فإن شيخها الكبير ، أبا سليمان الدارانى ، يردد أيضاً فكرة الحب ، ويطلق أحاديث قدسية يضع فيها عبارات رابعة ، ثم أثرت رابعة البصرة فى رابعة الشام . وفى مدرسة بغداد ، نرى أثر رابعة الكبير فى الحلاج والشبلى . أثرت فى نظرية الحب عند الأول وفى نظريته عن الحج بالهمة . وفى الثانى – أثرت فى شطحاته عن الحب ، بل إنه يردد نفس أشعارها فى مقام الخلة .

وهكذا نرى تباين أثر آرائها فهى إما امرأة صالحة زاهدة – من عابدات المسلمين القانتات عند البعض – وهى منشدة أغانى الحب الإلهى عند البعض الآخر . والمبشرة بالبهاء الإلهى – وإمكان الاتصال به . وهى صوفية فى مقام خلع العذار تشطح وتلقى بالواردات والخاطرات عند البعض الثالث وهى من زنادقة الصوفية عند البعض الرابع .

وأخيراً . . . أين امتدادها فى مدرسة البصرة نفسها . لقد حمل سهل بن عبد الله التسترى آراءها وتركها فى أعماق البصرة ، فى مدرسة سنكشف عن حقيقتها فى فصل تال . . .

كانت رابعة وزملاؤها من أصحاب نظريات المحبة والخلة الرواد الأوائل لهذه النظريات التى سادت الحياة الصوفية فيما بعد ، وحين سأتكلم عن النظريات ، سنرى إلى أى مدى تطورت ، وأقيم بناء آخر أو أبنية أخرى ، لا تتصل بجوهر نظرية المحبة أو نظرية الخلة كما تركتها رابعة ، وكما تركها رياح وكليب . ولكن لن نستطيع الآن أن نصوغ هذه النظريات ، قبل أن نعرض للمدارس المختلفة التى عاصرت مدرسة البصرة ، والتى شاركت مثلها فى وضع أساس التصوف ، متنقلة به من مرحلة العبادة والزهد ، حتى تصل به إلى التصوف . وسننتقل إلى أقرب المدارس إلى مدرسة البصرة ، وهى مدرسة الكوفة . .

---

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب : ج ١ ص ٤٨٦ ، ج ٢ ص ٨٨ ، ٨٩ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، – ١٥٦ .